المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

الطبعة الثانية

قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية

اختارها وترجمها وقدم لها

أبو همام

عبد اللطيف عبد الحليم

قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٦٥٩/ ٢
- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية
- أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة لقصائد مختارة من إسبانيا وأمريكا اللاتينية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت. ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail egyptcouncil@yahoo.com Tel. 27354524 - 27354526
Fax 27354554

قصائد من إسبانيا
وأمريكا اللاتينية

اختارها وترجمها وقدم لها

أبو همام عبد اللطيف عبد الحليم



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٨٨٨ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 8 - 318 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويـــــات

الإهـــداء ..

إلى الأديب الفنان الذى خلده أدبه وفنه ،

الأستاذ الكبير :

على أدهم

فى جوار الله

أبو همّام

مقدمة المترجم

هذه منتخبات من الشعر فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية ، استجبت فى اختيارها لذوقى الخاص ، ولا أزعم أنها تمثل الشعر تمثيلاً كاملاً فى تلك البلاد ، إنما حسبى أنها تمثل جانبًا حيًّا من جوانب هذا الشعر وشعرائه ، وفيهم أعلام كبار مثل : أونامونو ، والأخوان ما تشادو ، وإرنانـدث ، وبياسبيسا ، وغيرهم ، ولا يمكن أن يُذكر الشعر الإسبانى إلا إذا ذُكر هؤلاء فى صدارته .

وهذه المنتخبات قطرة من محيط ؛ لأن هذه البلاد - فى حد ذاتها - قصيدة جيدة ، بله أهلها ، الذين يحيون حياة شاعرة ، منذ أن كان شعرهم عربيًا ، وكان الفلاح وراء المحراث فى " شلب " يروى الشعر وينظمه .

ولعل هذه القطرة تتبعها قطرات بإخراجى - وإخراج غيرى - إلى القارئ العربى طرفًا من ذلك الشعر ، مترجمًا عن لغته الأصلية ، فإن هذا القارىء طالع شيئًا من أدب الإسبان مترجمًا عن لغات وسيطة ، ربما تبعد بعض الشىء بترجمتها عن مراد الكاتب ، اللهم إلا فى حالات نادرة كترجمة شيخنا العقاد ، والأستاذ على أدهم عن الإنجليزية لبعض ثمرات القرائح فى اللغة الإسبانية ، لكن أين منا مثل هذين الأستاذين - رحمهما الله ؟!

لقد كانت ترجمة العقاد وأدهم نموذجًا رائعًا لعبقرية الترجمة التى لا تخرم من مراد الكاتب شيئًا ، ولو أتيح للكاتب الأصلى هذا أن يكتب بالعربية ، لما كتب إلا بما أنطقه به العقاد وعلى أدهم . ولقد لذّ لى أن أقارن بين ترجمة هذين الأستاذين [١] وترجمة غيرهما عن اللغة الإسبانية مباشرة فرأيت عجبًا ؛ إذ رأيت أن الترجمة الأولى أقرب إلى النص الإسبانى - مع أنها عن لغة وسيطة - من الترجمة الثانية المباشرة ، وأعتقد أن لملكة العقاد وأدهم دخلاً فى ذلك ؛ إذ هى ترجمة أديب فنان يلابس روح الكاتب الأصلى ، لا ترجمة محترف ، تعوزه الملكة والنفاذ ، فما بالك لو ترجم العقاد وأدهم عن اللغة الأصلية مباشرة !!

لقد أقدمت على ترجمة الشعر واعيًا بمخاطر مثل هذه الترجمة [٢] ، ولذلك ما كنت أترجم إلا ما أعيشه بعمق ، كأنى صاحبه حالة نظمه ، يعترينى ما يعترى الشعراء فى حالات أقل ما توصف به أنها غير طبيعية ، ولعل ترجمة الشاعر للشاعر هى أصدق ترجمة - وليُسمح لى بشىء من الزهو فى هذه المقولة - فإننى اقتحمت عالم الترجمة من باب الشاعر ، الذى لا أعرف لنفسى بابًا أرحب وأحب إلىَّ منه ، ولو سيقت إلىَّ كل أبواب الدنيا !!

(١) نقصد ترجمة العقاد لخمينيث ، وعلى أدهم لأونامونو ، وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فإن ترجمة المازنى للخيام عن الإنجليزية - كما يقول العقاد - أقرب إلى مراد الشاعر الفارسى من ترجمات أخرى مباشرة .

(٢) ينبغى هنا الإشادة بترجمة الأستاذين الجليلين : الدكتور الطاهر أحمد مكى والدكتور محمود على مكى عن الإسبانية ، وأعمالهما فى هذا المجال أكبر من إشارتى هذه .

وإذا جاز لى أن أستشهد بحالة شخصية فإنني أقول : لقد ترجم أحد المترجمين قصيدة لى إلى الإسبانية ، ولم أكن آنذاك عارفًا باللغة ، وبعد حين قرأت القصيدة مترجمة ، وقارنتها بالأصل فما كان منى إلا قلت على مشهد من بعض الأدباء - ومنهم إسبان - إن هذه القصيدة المترجمة ليست قصيدتي ، مما يدل على وعورة هذا الطريق ، وكثرة مزالقه !!

إن لحظات الوهج والإبداع هى اللحظات الحية بالنسبة للشاعر ، وما عداها فضول ، يدخل فى نطاق العيش - لا الحياة - وما كنت فى هذه الترجمة إلا حيًّا يتخلل بواطن هؤلاء الشعراء ، ويجوس فى أعماقهم . وأشهد أن ثمة بعض الإغماضات التى كانت تصادفنى ، وما كانت تسعف المعاجم على كثرتها ، فما كان منى إلا أن " أحياها " ، و " أضطر إلى مضايقها " كما يقول القدماء ، فأعرف منحى الشاعر ، ويهضب الكلام ، وينثال أتيه ، ولو لم أترجم هذه الصفحات لكنت قائلها أو قائلاً بعضها على كل حال فى عروض الخليل .

ترجمت هذه القصائد نثرًا ، وأعتذر ، لكثرتها أولا ، ولضيق الوقت القاتل فى مصر ثانيًا ، ولعل الزمن يسلس من عصيه ، فأجد متسعًا لنظم هذه المختارات ، أو غيرها .

تنتظم المنتخبات عدة شعراء من إسبانيا ناطقين بالقشتالية ، والجليقية ، والقطلونية ، وعدة شعراء من أمريكا اللاتينية شفعت بعضهم بتقديم موجز ، ولكنه واف للتعريف بالشعراء ، وهو - على وجازته - حصيلة قراءة الشاعر ، وقراءة شىء مما كتب عنه ، كنت أطرح ما قرأته

عنه فى مكان بعيد من الذاكرة اللهم إلا ما لا يمكن الاستغناء عنه ، وأكتب عن الشاعر كما عرفته من خلال شعره ، وهذا يتسق مع نظرتنا للشعر الذى هو ترجمان لصاحبه ، وبعضهم اكتفيت بمختاراته فقط لمناسبة أخرى أعرف به التعريف الواجب .

بعض هؤلاء الشعراء تعتصره لواعج الحيرة والقلق الكونى أو الشخصى كأونامونو - وهو قريب الشبه فى شعره ونقده بشيخنا العقاد - وقد درسنا هذه القضية فى رسالتنا للدكتوراه - وكروساليا دى كاسترو ، وبعضهم راض الحياة كما راضته فى رضا مثل مانويل ماتشادو ، وبعضهم - وهذا يحسب لهم - تغنى لأسلافنا وسلفه الأندلسيين ولتراثنا العربى الإسلامى تغنى الحزين الراثى ، المزهو بتلك الحضارة الذاهبة ، المتأثر فى كلامه بكلامنا العربى مترجمًا إلى لغته .

كان المأمول فى هذه المقدمة أن أتحدث عن اتجاهات الشعر الإسبانى ، لكنى عدلت عن ذلك ، آملاً فى المستقبل أن أترجم رسالتى للدكتوراه ، وفيها حديث ضاف عن طبيعة الشعر الإسبانى ، ومدارسه فى العصر الحديث ، وإن كنت أسبق الأمور فأقرر أن الشعر الإسبانى فى مجمله قريب الشبه من الشعر الأندلسى ؛ لأن البيئة وشعراء هذه البيئة لم تتغير فى جوهرها ، وهم قوم يميلون إلى حياة بسيطة ورقيقة وممتعة ، ولا صبر لهم - طويلاً - على البقاء فى منطقة التأملات والتجريدات الباردة ، ولا على مطاولة لواعج القلق والحيرة والشكوك ، وإن كان أونامونو قد خرج على هذه القاعدة إلا أنه الاستثناء الذى يثبتها ، بيد أن لهذا حديثًا آخر .

وقد رأيت أن أضم مقالاً جيداً لدامسو ألونسو عن أولية الشعر الإسبانى ، وفيه مختارات قريبة من الموشحات الأندلسية مما يثبت الفضل العربى ، ويضيف إلى تاريخ الأدب الإسبانى زمنًا ليس باليسير ، وكلمة عن الشعر لخمينيث الشاعر الناقد .

وإنى – فى النهاية – لآمل أن يحيا القارئ مع هذه المختارات ما حييت ، وأن يجد المتعة التى وجدت، وأن يرى فيها المتشاعرون من أهل لغتنا الكلام الواضح الدقيق دون تعمية وإلغازات؛ أى– الشعر – بإيجاز ، وأن يسمع " الشعراء " – بحق – أصوات شعراء من أمم أخرى ، فالشاعر هو الشاعر فى كل مكان وزمان ؛ فإن تحقق هذا المأمول أو شىء منه فإننى لعظيم الغبطة ، وإلا فحسبى حيث كنت وأكون فى عالم الجمال والقوة والخير : عالم الشعراء ، وليس أحرى منه بالغبطة والبقاء .

أبو همّام

أولية الأدب الإسبانى

دامسو ألونسو

حتى عهد قريب كان الأدب الإسبانى يبدأ بعمل ملحمى هو " ملحمة السيد " التى يرى الأستاذ مييندث بيدال أنها وضعت حوالى سنة ١١٤٠م .

بيد أن البحث الحديث ألقى شعاعًا من الضوء على ذلك الليل البهيم ، فأضت معرفتنا تبحر إلى ما يناهز مئة عام من هذا التاريخ السالف ، وإذا بالأدب الإسبانى قد اكتسب - بغتة - قرنًا من الزمان ، وغدت بدايته غير ملحمية ، إنه بدأ - للحظ الحسن - غنائيا ، ببعض الأغنيات الساذجة التى تترنم بها المرأة العاشقة ، وهكذا ولد الأدب الإسبانى فى جو عذرى ، وجمال غرامى شفاف .

تطرح هذه الأغنيات سواء فى موضوعاتها ، أو فى معجمها اللغوى مصادفات ضخمة والأمر ذاته حدث بالنسبة للأغانى الجايجية والبرتغالية مع شبه الجزيرة ، باعتبارها الأساس العام ، والحلقة الأولى المعروفة . ونتيجة أخرى مدمرة ، وأهمية مبدعة بالنسبة للأدب الأوروبى : ليس " البروفنسال " هو العمل الغنائى الأول المعروف ، بل العمل المكتشف حديثًا " المستعرب الإسبانى " .

ضرب من المصادفات السعيدة أن آض فى متناول أيدينا هذه الذخيرة العاطفية ، لقد وضع شعراء مثقفون " عبريون وعرب " – منذ القرن الحادى عشر – فى قصائدهم المسماة " الموشحات " (خرجة) لم تكن عبرية ولا عربية مثل بقية الموشحة ، بل كانت من اللهجة الإسبانية الدارجة التى يتحدث بها المستعربون ، وبالطبع كانوا يقتبسون هاته الخرجات من تقليد شفوى حى كان يغنى به ، إنه فضول غريب ، وميل عجيب إلى تلك اللهجة الإسبانية العامية (التى لم يكن يكتبها أحد آنذاك) من أولئك الشعراء ، على حين كنا نعتقد أن الفضول الفولكلورى لم يذهب أبعد من القرن التاسع عشر !! لقد مثلت قصائد هؤلاء الشعراء اليهود قوارير الخمر الهائلة ، وعبر هذه القصائد نلمح رجال القرن العشرين باختلاجاتهم الحية ، علماً بأن هذه الإبداعات الفنية من حصاد القرن الحادى عشر ، نستقبلها نحن بدهشة حيرى ، معتقدين أن السماء تمطرها .

وصلت تلك الأغنيات من أمد سحيق ، يتسلل من أعماق العصور الوسطى الموحشة ، أتت إلينا وانية ، يومض فيها – بغبطة – ضوء الحياة اليومية ، وفى جمال لم نكن نقف على شىء منه .

أما لغتها فهى قديمة جدا ، لكن بمقارنتها " بملحمة السيد " يحسب أنها كتبت أمس ، وتمتزج فيها بعض الكلمات العربية مثل (LIL - HABIB) للحبيب ، مع الرومانثية ، ها هى امرأة منذ عام ١١٠٠ تغنى :

يارب !! (YARAB) !!

قلبى يكاد يفرمنى

يا هل ترى سوف يعود ؟

يا قوة الألم الذى ألقاه من أجل الحبيب Lil-habib .

سقم ألم به .

فمتى شفاه ؟

لقد لمح شيئًا من هذا " مينندث بلايو " ، أما الأستاذ " ملياس باييكروسا " - المتخصص المعروف فى الدراسات السامية - فقد حاول أن يفك مغالق أغنيتين تنسبان لشعراء من اليهود ، وفى عام ١٩٤٨ نشر المستشرق اليهودى " س - م شتيرن " عشرين أغنية محققة ، وهو ما يستحق عليه الإطراء - بغض النظر عما وقع فيه من أخطاء فله عذره - وبخاصة إذا أدركنا أن كل هذا العمل قام به وحده ، مع إلمامه الواهن باللغة الإسبانية ، فضلاً عن الطباعة الرديئة والرهيبة ، وسيظل اسمه منقوشًا بحروف ذهبية فى تاريخ الأدب الإسبانى ، وثمة باحث إسبانى معروف ، ومتخصص فى الدراسات العبرية هو " فرنسسكو قنطيرة " تناول قراءة " شتيرن " فى طورها الأول ، وحولها إلى نص واضح الالتئام ، أما صاحبنا المستشرق الكبير " غرثيه غومث " فقد أعاد القراءات السالفة وصححها ، وفك أغلاق بعض الخرجات التى كانت عصية ، ولم يغفل هؤلاء أيضًا الاقتراحات الجيدة للغويين أمثال : " غرثيه دى دييجو ، وألاركس بوراش ، وكوروميناس " .

ولنأخذ فى الاعتبار عادة : إنها الموشحات بخرجة من الرومانثى الإسبانى ، فقد كانت فى البداية عربية ، وحذا حذوهم فيها الشعراء اليهود ، ومع ذلك استطاع " شتيرون " أن يعثر فقط على موشحة عربية واحدة بها خرجة إسبانية .

هذه القضية سوف تتغير بسرعة بفضل الاكتشاف الضخم الذى قام به " غرثيه غومث " ؛ ففى عام ١٩٥٢ نشر أربعًا وعشرين خرجة من موشحات عربية ، بعضها يتفق وما نشره " شتيرن " قبل ذلك ، وكما قلنا آنفا إنها واردة فى موشحات عبرية !! والآن مع وجود أساس آخر من النص بات العمل والقراءات والتفسير أمرًا يسيرًا . وهكذا آض فى وسع غرثيه غومث أن يصحح التفسيرات السابقة ، مثلا فك إغلاق هذه الخرجة الرائعة :

كأنك صرت بنى ؛ ولا

تمت إلىَّ بأى صلة .

إذن ، لن تنام هنا ثانيًا

بحضنى ، وليس تدوم الصلة .

الموشحات الأخرى – وهى جديدة تمامًا – تكشف لنا عن عالم شعرى ذى مشيج مختلف إلى حد بعيد ، فمع خرجات الموشحات العبرية نجد أنفسنا مغمورين – مع استثناء واحد – فى جو عذرى أبيض ذى مسحة عاطفية ، أما ذات الأصل العربى المنشورة بعناية غرثيه غومث ، فتهيج النفس – أحيانًا – وهى فى عمومها ذات نزعة حسية شهوانية .

والذى نلمسه عبر الخرجات ذات الأصل العبرى أنها تتسق وخصائص الشعبين المسيحى واليهودى ، وأغنيات الصديق ذات النمط التقليدى (كما يتضح من أناشيد الفاتيكان) . لكن يلمح فى الخرجات ذات الأصل العربى أنها تتمشى والنزعة الحسية فى الحياة الإسلامية ؛ أى هاتين الصبغتين تمثل الجو الحقيقى للخرجات ، وهل ترى وجدت هاتان الصبغتان فى هذا الجو ، ويكون الأمر - والحال هذه - أن يختار كل شعب ما يصطلح ونحيزته ؟ ربما كانت إجابة هذه الأسئلة فى حاجة إلى تحليل مستوعب للأصول .

ها هى خرجة من إحدى الموشحات العربية المنشورة بعناية " غرثيه غومث " تقول :

يا سيدى إبراهيم Sidi Ibrahim

يا لك من اسم عذب أقبل إلىَّ فى المساء .

إن لم ترد زيارتى

أشد رحلى إليك .

قل لى إذن : أين اللقاء ؟

إنه هوى مرتجف من امرأة مستسلمة للحبيب شىء مبهج ومهم جدا تلك المساهمة الفعالة من باحثينا فى هذه الدراسات ذات الأهمية العالمية ، وكل ما اكتشف من هذه الدراسات (بما فيها مقال " شتيرن ") خرج إلى النور فى نشرة علمية دقيقة بإسبانيا ، وكلها مطبوعة فى (المجلس الأعلى للبحث العلمى) ، وبخاصة فى مجلة " الأندلس " الخاصة

بالدراسات العربية – والتى يرأس تحريرها " غرثيه غومث " ، وفى مجلة "اللغويات الإسبانية " ، وقد قام كاتب هذه السطور بمشاركة متواضعة ، وكان له الشرف فى أن يكون أول من نبه المتخصصين فى الدراسات الرومانثية إلى هذه المباحث .

وثمة مجموعة أخرى من خرجات رومانثية فى موشحات عربية خرجت إلى النور فى عام ١٩٥٣ : عشر منها جديدة وأربع تتفق وما نشر سالفًا ، وتلك المجموعة نشرها " شتيرن " ، ولكنه للأسف لم يستطع أن يكشف اللثام عن شىء منها تقريبًا (اللهم إلا بعض التعبيرات التى تتكرر دائمًا فى ذلك النمط من الأغنيات) ، ولدى غرثيه غومث دراسة عن هذه الذخيرة الجديدَة تحت الطبع ، ولعل فيها نتائج هائلة ، لكننا لن نتحدث عن هذا الآن .

كانت أصداء هذه الاكتشافات مدوية على المستوى العلمى فى العالم كله ، وقد اشترك فى مناقشة هذه المباحث الجديدة وتقييمها لغويون من أمثال : مييندث بيدال ، وفرينجس ، وسبيتثر ، وورونكالجيا إلى آخر القائمة ، لكن ثمة خيطًا مقطوعًا فى عقود مختلفة من السنين يحول دون إتمام المناقشة ، وتكوين النظرية .

يارب !!

قلبى يكاد يفرمنى .

يا هل ترى سوف يعود ؟

هكذا كانت تغنى تلك الصبية ، يا له من صوت شجى ! ينساب عبر دياجى القرون ، فيطرق أحاسيس سادرة لرجال يعيشون فى كربات منتصف القرن العشرين ، إنه صوت بكر يثقب القلب ، رائق ، ناضج ، كأنه ينبع من حنجرة زهرة ، أو من شفاه كانت تشف عن وهج الشباب ، ليست تهزنا هاته الأغنيات بسبب قدمها السحيق ، بل إن ما يشعرنا فيها بارتجافة هو عريها وارتعاشها ، وجمالها الفريد ، وأعظم بها من ذخيرة جديدة للأدب الإسبانى !!

روسـاليـا دى كـاسـترو

شاعرة كبيرة ، على خلاف المعهود بين من ينظم الشعر من النسوة ؛ إذ يشيع بينهن - عمومًا - أن يخفين مشاعرهن ، بحكم النحيزة التى أشرجن عليها ، فلا يبدين منها إلا ما يستشف وراء برقع العرب وحجاب التقاليد ؛ لذلك ندر بروز " الشخصية " فيما تنظمه الشواعر فى اللغة العربية ، وفى غيرها مما استطعنا الاطلاع عليه .

وروساليادى كاسترو شاعرة حقيقية فى أغلب ما نظمته ؛ فشعرها هو حياتها فى لحظات توهجها وانطفائها ، لا تكاد تخفى فيه خالجة ولا هاجسة مما مر بها فى حياتها المصطخبة القانطة ، يشيع فى شعرها نغم أسيان دامع كأنه صدى لطبيعة منطقتها " جليقية " وهى صادقة فى هذا الحزن ؛ لأن حياتها كلها نغم متواصل من لذاعة الحسرة ، ومرارة المجهول ، وكوارث الأيام ، فإذا رأى حضرات القراء فى شعرها هذا القنوط ، وهذا الحرد الشجى فليعلموا أن صاحبته تنتشل من بئر تضطرب فيها الأرشية ، ومن كهف نفسها المتجاوب بعزيف الوحدة ، وتوله الضياع ، وليعلموا أن البسمة - والحال هذه - ضرب من الزيف الذى يفسد الإنسانية الحقة ، بقدر ما ينخر فى الشاعرية ، فلا ترى فيها إلا إهابًا معروقًا بتمويه النفاق ، وطلاء الصنعة

والتكلف ، وليحمدوا الصدق وإن كان أليم الوقع ، شجى الجرس ، لأنه صدق نفس شاعرة ، يكربها أن تدور ببضاعة مزجاة من التدليس والتمويه المشفوعين ببسمة خادعة ؛ لأن الحياة ذاتها - حياتها هى - لم تمنحها غير الحزن اللاعج ، وحين وهبتها ما يشبه العزاء مزجته بالصاب فكان عزاء خير منه الالتياع والقنوط .

نحن - فى الحقيقة - نريغ أمرًا إدًّا حين ننشد من شاعرة مثل روساليادى كاسترو أن تكون متفائلة باسمة ، والدنيا حولها كهف من الأسى والضياع ، وهى امرأة تطلب اللياذ والكنف فلا تصادفهما ، وحين أتيح لها شىء منهما كان برقًا خلبًا .

ولدت شاعرتنا وهى لا تدرى من أبواها ، وقيدت فى شهادة الميلاد "ابنة أبوين مجهولين " تولت رعايتها امرأة قيل إنها عمتها ، تتكشف أمور حياتها شيئًا فشيئًا ، هى ثمرة شهوة لامرأة فى الثالثة والثلاثين من عمرها عانس ، ولرجل راهب فى التاسعة والثلاثين يحول دون الاعتراف بابنته صرامة التقاليد وقسوة الأعراف الدينية ، وسطوة الكنيسة آنذاك ، وإلا فإن مثل هذه الأمور تحدث الآن فى بلد مثل إسبانيا - تحكمه الكاثوليكية فى صرامة شديدة - ويظهر أصحابها فى الصحف وعلى شاشة التليفزيون يتحدثون عنها بلا أدنى خجل أو حياء ، وهم أشخاص يحظون بقدر هائل من الشهرة فى عالم الفن .

لم تتح لصاحبتنا قسامة ولا صباحة مما سبب لها حساسية شديدة ، وحسبك أنها ابنة امرأة عانس صدف عنها الرجال ، ربما ورثت عنها الابنة معارف الوجه والأعضاء ، وربما كان أبوها أيضًا على غير وسامة ،

يُضاف إلى ذلك سوء رعايتها وهى فى دور الصبا واليفاعة ، فأضافت إليها أوصابًا وعللاً ظلت تعانى من عقابيلها حتى هلكت بالسرطان ، فضلاً عما لقيته من حساسية شاعرية شديدة تضاعف رؤيتها للأشياء ، وما وقر فى نفسها من خجل بسبب أصلها المجهول ، وكان من الممكن أن تقاوم كل هذه الكوارث لو ركنت فى الدنيا إلى زيجة صالحة ، وإلى حياة مستقرة ، لكن لم يتح لها شىء من هذا ، فلم تعرف الهناءة الزوجية فيما يحكونه عنها ، ولم تتيسر لها موارد مادية تكفكف غرب الضوائق التى أحاقت بها ، وكأنما تأبى الدنيا أن تحلَوْلى ؛ فهزت ذلك البنيان الوهنان بموت بعض أبنائها - بعضهم نزل ميتًا - وبموت أمها بعد أن عاشت مع الابنة ردحًا من الزمن لم يكن طويلاً ، كل هذه الأعاصير زلزلت ذلك الكيان ، فعصفت به فى المطلع والختام ، قبل أن يبلغ تمام النضج والأوان ، هلكت عن ثمان وأربعين سنة (١٨٣٧ - ١٨٨٥) ، بعد أن أتت عليها العلل والأوصاب ، وطوال هذه الرحلة كانت دائبة البحث عن شىء فقدته .

لا أدرى ما أبحث عنه دائمًا

فى الأرض ، وفى الفضاء ، وفى السماء

لست أدرى ما أبحث عنه .

لكن شيئًا قد فقدته ، لست أعلم متى ،

ولست أعثر عليه .

بيد أن الشيء الذى تبحث عنه فى كل شعرها هو أصلها الضائع ، إنما تنشد ظل رجل كان أظلع أو مبتور الساقين كما تقول فى إحدى قصائدها ، إنها تبحث عن أبيها ، ولعل قصيدتها " ذكرى " تصلح لأن تكون نمطًا جيداً لمنهج التحليل النفسى فى الأدب والنقد ، وهو المنهج الذى نعتد به ونراه محكًا جيداً وفيصلاً حاسمًا حين تشتجر مناهج الدراسة الأدبية ، ولا بأس عندنا من الإفادة من ثمرات المناهج الأخرى ، ولا بأس بالإشارة هنا - على وجه العجلة - إلى أن المنهج البنائى الذى يشيع بين المتأدبين هذه الأيام وبخاصة ما يكتبه فيه كثير من إخواننا الدارسين العرب إنما هو - فى معظمه - ضرب من التخليط والثرثرة وعدم الفهم ، وجل الذى يسطرونه ترجمة شائهة أو غير مفهومة لما يقرأونه فى اللغات الأجنبية فيأتى بعضهم مثلاً على دراسة كتبها أحد الأساتذة فى الغرب عن أحد الشعراء فيسلخها من سياقها ليطبقها على أحد الشعراء العرب فيتولد فى النهاية شيء متدابر التركيب والمعنى إن كان ثمة معنى مفهوم ، جل ما قرأناه - فى الحقيقة - فى لغة العرب ضرب من التدجيل والشعوذة على القارئ ، وغير مفهوم حتى لمن يكتبه هو نفسه ، وتستتر وراء عباءات المنهجية ، وعلمية النقد ، وصعوبة البنائية ، والحق أننا اهتممنا بهذا الموضوع جداً ، فقرأنا فيه طرفًا مما كتبه الإسبان ونقاد أمريكا اللاتينية ، وما نقلوه إلى اللغة الإسبانية من لغات أخرى وهرعنا مرار كثيرة إلى المحاضرات التى يلقيها الأساتذة المتخصصون الكبار ، وبعضهم عضو فى المجمع الملكى للغة الإسبانية ، فوجدنا - والله عجبًا - ما قرأناه فى ذلك مفهوم ، وما سمعناه من

الأساتذة – وبخاصة تطبيقهم هذا المنهج على الشاعر الإسبانى جنجرة – وهو من أصعب الشعراء – كان مفهوماً سائغًا ، فالعيب إذن فى إخواننا العرب الذين يكتبون بلغتنا ولا نفهم ما يكتبون ولا نخالهم فاهمين !! .

قصيدة " ذكرى " – كما قلنا آنفًا تصلح نموذجًا لتطبيق المنهج النفسى ، بل إن شعر صاحبتنا يصلح كله لهذا المنهج ، ويفسد لو طبقنا منهجًا آخر ، فالقصيدة تيك تتحدث عن رجل مر بها وكفف بكاءها ، من الممكن أن يكون حبا فى زمن المراهقة تتذكره الشاعرة ، لكننا نميل إلى أن هذا الرجل كان أباها وهى لا تعرفه – أوانئذ – وربت فوق جبهتها ثم ترك لها أغنياته ، لكن هذا كله كان هباء ، فقد هجعت السعادة ، وأشاح ذلك السرور العابر ، بيد أن لهذا الحديث أوانا آخر نود أن نؤوب إليه ، وأن ندع الآن حضرات القراء مع هذه الطائفة من قصائد روساليا دى كاسترو ، فهم عسيُّون أن يعجبوا بها كما طاب لنا الإعجاب بها ، والثناء عليها وعلى صاحبتها ، عسى أن يكون هذا لونًا من المشاركة فى الشعور ، وضربًا كريمًا من العزاء الصادق لهذه الشاعرة الحزينة الصادقة .

(١) ذكـــــرى

آه !! من البكاء الذى يحرق عينى

ويكوى خدى !!

كيف يسممنى العذاب الفظ ، ويتسلل إلى فؤادى ؟

كيف أشعر بأسف نفسى لدى الاندفاع الشديد ،

متذكرة يومًا حلوًا وحزينًا مر مرور الريح ؟!

ما أكثر الأسماء والتنهدات الماثلة فى ذاكرتى

صفحة غريبة من حياتى الطويلة

من شىء طيب أهذى به

كنت أصغى إلى صوت مفعم بالبهجة

إلى نغم بلا اسم

كان يمضى ، يترنم ، ململمًا بكائى

كان صوت رجل .

اقترب ظل عابر فى خفة ، يسكب حبه ، مرت فوق صدغى الباكر ألف زهرة حبيبة .

ربت فوق جبهتي التي تغوص في كوارث فظة
كان مليئًا بالعذوبة ، والانسجام
ثم ترك لي أغنياته
آه ، كانت لذيذة هاتيك القيثارة الرنانة
التي تخفق ، ونحن نشعر بها من أيكة قصية
إلي حيث يتلاشى أنينها الأليم
لقد أحسست بحنانها الإلهي ، وهو يتوغل في روحي ،
يبدد المرارة الآسية التي كانت تختلس هدوئي .
ويحل شوقي الملتهب محل ذاكرتي الباردة
لقد شعرت - في عنف - بقلبي ينبض بذلك المجد الجديد
سعادة بلا تخوم ، اقتربت مبكرة
مع ملذات غريبة ، مثل لمعة الصباح ، وتموت عند الأصيل ،
صورة من البهجة والاحتضار تعلق بالفؤاد .
إنها صورة أمينة لهذا الأمل الباطل
الذي يتحول إلى هباء
مثلما يقول المرء - وهو آمل - « غداً »
بينما " غداً " هو الموت
هكذا كان : جبهتي الوسنى

عادت متوردة فيما بعد ،

قايضتني بفجر سروري

زهرة تذبل ، ثم تلقى .

صمت صوت النغم الكبير ، وهجعت السعادة ، وحين استيقظ البريق الجديد ، مات ما هو ماضٍ

* * *

بقي اليوم فحسب النشيج على آلامي

فاهجعي يا أحلام الحب في فؤادي

فإن السعادة الكبيرة تنكر وجودي

فاهربي إذن أيتها السعادة ، وأشح بوجهك أيها المجد والسرور

(٢) أنشـــودة حـــب

أيها القديس أنطونيو المبارك ، هب لي زوجًا حتى ولو قتلني ، حتى ولو سحقني .

قديسي ، القديس أنطونيو ، هب زوجًا ودودًا حتى ولو كان في حجم حبة الذرة ، هبه لي يا قديسي حتى ولو كان به ظلع في كلتا رجليه ، ومقطوع اليدين فإن امرأة بلا رجل - أيها القديس المبارك -

هي جسد بلا روح ، عيد بلا حنطة ،

عصا رديئة ، حيث تمضي - هي جذع مبتور

لكن حين يكون ثمة زوج - يا عذراء الكارمن - لا تقبل الدنيا لكى يستريح الإنسان .

فإنه من الحسن دائمًا أن يكون ثمة رجل كى يكون مُعينًا حتى ولو كان أظلع ، أو معوج الساقين .

إننى أعرف رجلاً أوده من أول نظرة

ناحل الجسد ، أشقر ، متوردًا ، أبيض ،

عذب الكلمات ، مثل الأكاذيب

من أجله أعانى صباحًا ومساءً ، أفكر فى عينيه

اللتين لهما زرقة السماء .

بيد أنه ماهر يفهم فى الحب .

ولا يفهم كثيراً فى الزواج .

فلتجعله - أيها القديس أنطونيو - قديسى - أن يأتى بجانبى لكى يبنى بى ، فإننى فتاة آنسة أحمل مهرى ملعقة من حديد ، وأربع شجرات ، وأخا صغيراً ، نبتت له أسنان ، وأحمل بقرة عجوزاً لا تُدر لبنًا . آه يا قديسى ، حقق لى هذا الشيء الذى أنشده منك .

أيها القديس أنطونيو المبارك هب لى زوجًا

حتى ولو قتلنى ، حتى ولو سحقنى .

فإنه من الحسن دائمًا أن يكون ثمة رجل كى يكون معينا ، حتى ولو كان أظلع ، أو معوج الساقين .

(٣) أجـــراس المســـاء

تكر الرياح ، ويسرى النهر ،

يمر السحاب ، يمر السحاب

على طريق بيتى

بيتى ، مثواى ، كل شىء يمضى

وأنا أجثم وحيدة ، بلا صديق

أقبع متأملة دخان أفران المنازل

إنها الأنفاس التى أعيش أزفرها

ها قد هبط المساء ، ومات النهار

ومن بعيد تقرع الأجراس .

تعلن موعد الصلاة

إنها تقرع لكى أصلى ، وأنا صلاتى الانتحاب

كأنى أغرق ، على الأجراس أن تصلى من أجلى

يا أجراس باستبالس حين أسمعك أموت من العزلة .

(٤) يقولـــون

يقـولـون إن الأزهـــار لا تـتـحـــدث ، ولا الينابيـع ، ولا الطيـور ، ولا الموجة بدمدمتها ، ولا النجوم ببريقها .

يقولون ذلك ، بيد أنه غير صواب ،

لأنني دائمًا حين أمر تغمغم كل هذه الأشياء ، وتتعجب مني :

هناك تمضي هذه المجنونة ، حالمة

بربيع الحياة الخالدة ، وبربيع الحقول .

وشيكًا ، وشيكًا سيهجم عليها المشيب .

ستزتجف أوصالها ، ويصيبها الفالج .

وسيغطي الجليد المروج .

ها قد اشتعل الرأس شيبًا .

ها قد جلل المروج الجليد

وأنا مازلت أحلم ، مسكينة ،

لا أبرأ من سيري الحالم بربيع الحياة الخالدة التي تنطفئ ، وببكارة الحقـول البـاقيـة ، والنفـوس ، وإن كـان البـعض يذوي ، والبـعض الآخر يحترق .

أيتها النجوم ، والينابيع ، والأزهار ! !

لا تتعجبى من أحلامى :

لأننى بدونها ، كيف أغرم بكن ،

بل كيف أحيا بدون أحلام ؟

(٥) وحــــدى

كان الأصيل رقيقًا ، والصباح باسمًا

وكان حزنها أسحم مثل اليتم

كانت تذهب فى الصباح ، وتقفل آيبة فى المساء ، ومع ذلك ما كان أحد ينظر إليها فى جيئتها وذهوبها

ذات يوم وديع مضت ، مشت فى طريق الرملة .

وبما أنه لا ينتظرها أحد ، فلم تعد .

بعد مرور ثلاثة أيام ، طرحها البحر

هنالك حيث يجثم جسدها .

هكذا دفنت وحدها !!

قصائد من رائد الحداثة

روبن داريو

تقديم :

روبن داريو ، أو فيلكس روبن غرثيه سارمينتون ، ولد في ميتابا "نيكاراجوا " عام ١٨٦٧ ، أمضى طفولته في ليون " نيكاراجوا" ، درس في مدارس اليسوعيين ، أنشأ ينشر شعره في الثالثة عشرة من عمره ، اشتغل مدرسًا أوليًا في إحدى المدارس ، وموظفًا فيما بعد بالمكتبة الوطنية في ماناجوا ، بدأ يكمل ثقافته بقراءة الكلاسيكيين الإسبان ، وشعراء الرومانسية الفرنسيين والإسبان ، أقام بعد ذلك في السلفادور ، ثم عمل صحفيا في شيلي ، ومراسلاً لصحيفة : "لاناثيون" في بوينوس أيرس ، وعاد إلى وطنه . في عام ١٨٩٢ ، وبمناسبة العيد المئوى الرابع لاكتشاف أمريكا ، ذهب لأول مرة إلى إسبانيا ، ورجع إلى أمريكا ، وزار نيويورك وباريس ، وأقام في بوينس أيرس قنصلا لكولومبيا ، عاد إلى إسبانيا في ١٨٩٨ ، وفي هذه المرة – مراسلاً " لأناثيون" ، في تلك السفرة وسع دائرة معارفه ؛ إذ أصدر كتابه " نثر دنيوى " . أنشأ يمارس تأثيرًا عميقًا في الشعراء الإسبان الشبان .

قضى السنوات الأولى من هذا القرن في باريس قنصلاً لنيكاراجوا ، سافر إلى فرنسا ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، وبلجيكا ، وألمانيا ، والنمسا ، والمجر ، وإنجلترا ، والبرازيل ، والأرجنتين ، وميورقه ، وفي النهاية إلى نيكاراجوا .

عين في ١٩٠٨ وزيراً مفوضًا في إسبانيا ، لكنه يقيم عادة في باريس ، وفي ١٩١٠ ذهب إلى الاحتفال المئوى للمكسيك ، أسس في باريس مجلتين : مونديال ، وإليجانثيا . وفي السنوات الأخيرة من حياته ذهب من جديد إلى أمريكا ، وأقام فترة في ميورقه ، وسافر في ١٩١٤ إلى نيويورك ، مرض مرضًا شديداً ، ومن هناك ذهب إلى جواتيمالا " بحثًا عن مقبرة في الوطن الأم " في الواقع وجدها في ليون ؛ حيث مات في يناير ١٩١٦ بسبب مرض الكبد .

لم يكن غريبًا أن يموت نصرانيا من عاش " بين الكاتدرائية والخرائب الشاردة " ، وإن كان القول الحق أنه كان أقرب إلى الخرائب هاته ، لقد اعترف : " في كآبتي بحثت عن الله ملاذاً ، وتشبثت بصلواتي ، كأنها المظلة " ، إنها روح الطفولة في روبن داريو ، مطرق ، معتقد في الخرافات ، عاجز عن ردود الفعل الكبرى للإرادة . بلا ريب كان يجرى في عروقه " قطرة من دم إفريقي ، أو هندى شوروتيجو ، أو أسود " .

أصوله الثلاثة الهندى الأمريكي الإسباني ، وبالميل الجمالي وليس بسبب الدم الفرنسي ، كلها تؤكد في أعماله تعدداً كاملاً في المذاقات ، وتعايشاً لأخلاط حارة وحيوية " التاريخ السماوى لقلبي كان جمعًا " كما غنى في إحدى قصائده . في الواقع أحب في الطفولة والشباب :

إنيس ، وإلينا ، وهورتنسيا ، من الضرورى أن تنضم فيما بعد زوجاته ، وصاحبته فى سنواته الأخيرة " فرنسيسكا سانشت " .

فى مقالاته النثرية ، وبخاصة فى مقدمات دواوينه ، تحدث روبن داريو مراراً حول مفهومه للشعر ، أذكر هنا بعض الفقر المتناثرة ، تبدو لى ذات دلالة خاصة ، مأخوذة من مقدماته :

أول شىء : المبدع أن تبدع ، وأن تخلق الفحولة فى الخصى ، حين تمنحك عروس الشعر ولداً ، تبقى الثمانى الأخريات حوامل .

فيما يتعلق بالعروض وما يتعلق بالإيقاع : كما أن لكل كلمة روحًا ، فإن لكل بيت كذلك ، فضلاً عن الانسجام الفعلى ، ميلوديا مثالية ، الموسيقى فى كثير من الأحيان موسيقى فكرة فقط .

فى الوسع أن أكرر أكثر من مفهوم للكلمات ، إننى أولى الاحترام لأرستقراطية الفكر ، ونبالة الفن ، وهما شىء واحد دائمًا ، وإن مللى القديم من التوسط ، ومن الذكاء المولد .

حركة الحرية التى بدأتها فى أمريكا قد امتدت إلى إسبانيا ، وهنا وهنالك تحقق الظفر .

لست شاعر الجماهير ، لكنى دائمًا علىَّ أن أسعى إليها . عندما قلت إن شعرى كان " شعرى النابع منى " كنت أعتمد على الشرط الأول لوجودى ، دون أى ادعاء يخلف تشبعًا فى عقل بعيد ، أو إرادة غريبة ، وفى حب عميق للجمال المطلق .

لقد قلت : أن تكون صريحًا تعنى أن تكون قويا ، النشاط الإنسانى لا يمارس من خلال العلم ، ولا من المعارف الحالية ، بل من خلال

الانتصار على الزمن والفراغ ، لقد تأملت مشكلة الوجود ، وحاولت الإنطلاق نحو المثالية العالية ، عبرت عما يمكن التعبير عنه من نفسى ، ورغبت فى التولج إلى نفوس الآخرين ، وإغراقى فى روح الإنسانية الرحبة .

لم أتعد للكلمة بوصفها كلمة ؛ لأنها ليست فى ذاتها سوى علامة ، أو مجموعة علامات ، هى كل ما تحتويه من الحيوية الخلاقة .

لست محطم أيقونات ، لماذا ؟ نحتاج دائمًا فى الإبداع إلى الوقت الضائع فى التحطيم .

وعليه إذا قال أحد : " إنها أشياء خاصة بالأيديلوجيين " أو " أشياء خاصة بالشعراء " ، فإننا نقول : لسنا شيئًا آخر ، أن نعبر : حتى عن الخنزير ، وعن الشاعر الذى استولى عليه بعض الفلاسفة ، فإننا لدينا الملاك .

لدينا الملاك !! يا إلهى ! أطالب بتفسيرات أندلسية !!

١ – ڤينوس :

فى الليل الساجى ، عانيت من حنينى المر

بحثًا عن القلق هبطت إلى الحديقة الساكنة الباردة

فى السماء المظلمة ، فينوس الجميلة ، متأملة ، مضيئة كأنها الياسمين الإلهى ، المذهب ، مطعّمًا بالأبنوس

....

تبدو لروحى العاشقة ، ملكة شرقية
تنتظر حبيبها تحت سقف غرفته
أو محمولة على الأعناق ، دوارة فى الامتداد العميق
منتصرة ، ومضيئة ، تتمايل فوق هودج

....

أيتها الملكة الشقراء - قولى لها - إن روحى تود أن
تهجر شرنقتها ، وأن تطير نحوك
وأن تقبل شفتيك الناريتين ، وأن تطفو فوق الهالة التى تسيل على جبهتك نوراً خافتاً

....

فى الأعالى الطروب لم تدعى أى لحظة فى سبيل الحب .
والنسيم الليلى يرطب الطقس الحار
يا ڤينوس ، أنت تنظرين إلىّ من الهاوية
نظرة حزينة

* * *

٢ - الخريف :

أدرى أن هناك من يقول : لماذا يغنى الآن
بذلك الجنون الموقع من ذلك الزمان القديم ؟
إنهم لم يروا العمل العميق لتلك الساعة
ولا العمل فى تلك الدقيقة ، ولا أعجوبة العام

....

أنا ، يا للشجر المسكين !! أصب فى بحر العجلة
عندما أنشأت أنمو ، أغنى غناءً شارداً ، ولذيذاً ،
مضى زمن البسمة الشابة
فدعوا البركان يستجيش فؤادى

....

٣ - قوقعة :

فى الشاطئ عثرت على قوقعة ذهبية ، مصمتة ،
موشاة بلآلئ هائلة الرقة
لمستها أوروبا بأيديها الإلهية
عندما اجتازت الأمواج فوق الحلقة السماوية

....

حملت إلى شفتى القوقعة الصائتة
أثرت صدى الأهداف البحرية
قربتها من أذنى ، ومن الهاوية الزرقاء
فحكت لى بصوت خافت عن ذخيرتها السرية

....

هكذا وصل إلىّ الملح من الرياح المريرة
التى من أشرعتها المبسوطة شعرت سفينة " أرجوس "
عندما أحبت الأفلاك حلم " خاسون "

....

أتسمع تلاطم موج نبرة مجهولة ،
أتسمع تموجًا عميقًا ، ريحًا مجهولة
" فالقوقعة لها شكل القلب "

٤ - الحتمى :

يا لسعادة الشجر ، إنه لا يكاد يشعر
وأسعد منه الصخرة الصماء ، فهى لا تحس ؛
إذ ليس ثمة ألم أقسى من ألم الكائن الحى
ولا أشد كآبة من الحياة الواعية

....

الحياة ، دون أن تدرى شيئًا ، الحياة بلا وجهة محدودة ،
الخوف من الوجود ، والمستقبل بشع
الفظاعة المتيقنة من الموت غداً
العذاب من أجل الحياة ، من أجل الظل ،
ومن المجهول الذى لا نكاد نشك فيه
اللحم الذى يغرى بعناقيده الباردة
اللحد الذى يحتفظ بغصونه الجنائزية
ألا ندرى شيئًا ، أين نمضى ؟
ولا من أين أتينا ؟ !

....

٥ - (إتشو)

هنا بجوار بحر اللاتين
أقول الحق :
أشعر بالصخرة ، والزيت ، والنبيذ
أشعر بأقدامى

....

آه ، يالى من هرِم ، يا إلهى ! يالى من هرم !

من أين يأتى غنائى ؟ وأنا ، إلى أين أمضى ؟

أن أعرف نفسى ، يا له من إصر ثقيل

لحظات كثيرة فى عمق الهاوية

كيف ... ومتى ... ؟

هذا الوضوح اللاتينى ، بم ينفعنى

فى الولوج إلى الكهف : كهف ذاتى ، وكهف غيرى ؟

....

مسرور ينفلباتا ، أعتقد أنه كشف سر

الريح ، والأرض ، والبحر ...

....

أسرار شاردة للوجود والعدم

مقطوعات من وعى الحاضر والماضى ...

إننى أصرخ فى البيداء

نظرت إلى الشمس مثل الميت

أنشأت أبكى

....

٦ - أغنية للخريف فى الربيع :

أيها الشباب ، يا كنزًا إلهيًا
ها أنت تمضى إلى غير عودة
عندما أرغب فى البكاء ، لا أبكى
وأحيانًا أبكى دون أن أريد . .

....

كانت حكاية قلبى السماوية حاشدة
كانت بنتًا حلوة في ذلك العالم
الأليم المكتئب

....

كانت تنظر مثل الفجر الطاهر
تبسم مثل زهرة
وكان شعرها الفاحم منسوجًا
من الليل ، ومن الألم

....

وكنت خائفًا مثل طفل

وكانت هى - بالطبع - بالنسبة

لحبى السماوى

هيروديا س ، وسالومى

....

أيها الشباب ، يا كنزاً إلهيا

ها أنت تمضى إلى غير عودة

عندما أرغب فى البكاء ، لا أبكى

وأحيانًا أبكى دون أن أريد . . .

....

كانت أكبر سلوى

وأشد فتنةً ، وأقوى تعبيراً

وكانت الأخرى أرق حساسيةً

كما لم أفكر فى العثور عليها مطلقًا

....

إذ تجمع إلى حنانها المتواصل

حبا لاعجًا

تتدثر برداء شفاف خالص

فاجرة سكرى " كاهنة باخوس

....

أيها الشباب ، يا كنزاً إلهيا

ها أنت تمضى إلى غير عودة

عندما أرغب فى البكاء ، لا أبكى

وأحياناً أبكى دون أن أريد . .

أخرى قضت بأن يكون فمى

غمد هواها

وحمقاء قضمت بأسنانها

فــؤادى

....

تثبتت فى الهوى الدفوع

شبا إرادتها

بينما كان العناق ، والقبل

سبيل الخلود

....

ومن لحمنا اليسير
نتصور آدم دائماً
دون أن نفكر أن الربيع واللحم
ينتهيان أيضاً . . .

....

أيها الشباب ، يا كنزاً إلهيا
ها أنت تمضى إلى غير عودة
عندما أرغب فى البكاء ، لا أبكى
وأحياناً أبكى دون أن أريد . .

والأخريات فى الأجواء المتعددة
والأراضى المختلفة ، دائماً شاخصات
فإن لم يكن تعلة لقوافى
فهن خيالات فؤادى
عبثاً بحثت عن الأميرة
التى كانت تنتظر حزينة
فالحياة صعبة ، مريرة ، ثقيلة . .
حين لا توجد أميرة تغنى . . . !

....

مثلما هو ثقيل ذلك الزمن الحرون

عطشى للحب دون نهاية

مع الشعر الرمادى أدنو

من الطريق المزهر فى البستان

....

أيها الشباب ، يا كنزاً إلهيا

ها أنت تمضى إلى غير عودة

عندما أرغب فى البكاء ، لا أبكى

وأحياناً أبكى دون أن أريد . .

....

ألا يكون الفجر الذهبى لى ؟!

....

ميجيل دى أونامونو

" ملأ الدنيا ، وشغل الناس " ، إذا جاز لنا أن نستأنس بهذه الكلمة التى قيلت عن شاعر العرب الأكبر أبى الطيب المتنبى ، فإن أونامونو ملأ الدنيا بما كتبه ، وشغل الناس بما كتبوه عنه مادحين وقادحين ، فى حياته وبعد موته ، وأرق كثيرين من أصحاب السلطان ، لكنه - على كل حال - لم ينم ملء جفونه ، بل تأرق ، وجرب النفى والضياع .

رجل من نوى النحائز التى أشرجت على الحيوية العقلية والنفسية ، التى يضيق عنها اللحم والدم ، واتفق أن اصطلحت على بنيانه الوهنان علل الجسد ، وأزمة عقدية طاحنة ، زمان الصبا ريان ، فزلزلت ذاك الكيان ، كل هذا مع شعور متوقد ، وذكاء ملتهب ، وثقافة يقول عنها " كارلوس أيالا " : " إن قلة قليلة من الرجال طرقوا أبواب القرن العشرين بمثل هذا المتاع الثقافى الضخم الذى يتمتع به (دون مجيل) " .

شاعر ، كاتب ، ناقد ، مفكر ، قصصى ، مسرحى ، أستاذ اللغة الإغريقية وآدابها ، ومدير لجامعة شلمنقة ، ولد فى بلباو من إقليم الباسك فى صباح التاسع والعشرين من سبتمبر ١٨٦٤ ، ونشأ فى كنف أسرة كاثوليكية متدينة ، وهلك فى آخر يوم من عام ١٩٣٦ .

يحكى الأب خوليو ثيخادور صديق أونامونو الحميم أملوحة عن سنوات الدراسة مع أونامونو ، وهى توضح شيئًا أساسيًا ، وترمز فى إيجاز إلى مفتاح شخصية صاحبنا ، يقول : كانت قد تأسست جمعية لهواة الترتيل الكنسى ، وكان ميجيل أحد المشتركين فيها ، فى أحد الأيام أنبه المدير بسبب النشاز الذى أقحمه ميجيل عمداً ، لكنه أجابه فى هدوء " لو لم أحدث هذا النشاز لما فطن أحد إلى وجودى هنا " .

إنه هم طاغ سدك به طوال حياته : التميز ، نفوره من التبويب ، القلق ، الإزعاج ، إيقاظ السادرين .

من الغريب أن الرجل لم يبدأ حياته الشعرية إلا فى الثالثة والأربعين من عمره ، أما قبلها فكان يعالج القصة والمسرحية والمقال ، وشئون الفكر والسياسة بوجه عام ، وهاته السن هى زمن نضوب القريحة ، وعهد إدبار الشباب المتوهج على وجه العموم ، وإن كان هذا الحكم يناقضه ما نظمه أونامونو ، وجيتى ، وتوماس هاردى ، والعقاد عندنا ، فالأخير ظل مواظباً على قرض الشعر حتى نهاية حياته ، بل إنه كتب غزلاً أشد وهجاً مما كتبه فى صباه ، وإن كان الشعور مختلفاً .

نظم أونامونو شعراً كثيراً ، رأى النور فى حياته تسعة دواوين ، ونُشر عاشرها بعد مماته ، وقد تضاربت الآراء حول هذا الشعر تضارباً شديداً ، فبعضهم يراه مفكراً لا شاعراً ، وآخرون يرون فيه مشروع شاعر ، وفريق آخر يرى أن أولى ملكاته وأحقها بالتقديم هى الشعر ، ومن أصحاب هذه المقولة كارلوس أيالا ، وروبين داريو شاعر نيكاراجوا الأكبر ، وجماعة آخرون يتوسطون فى الحكم فيرونه شاعراً يغلب عليه عمل الذهن فتغيض بذلك الموسيقية والمائية .

ونحن – بعد قراءتنا شعر الرجل – نراه شاعراً فى أغلب ما كتبه ، بل نراه – إن لم نكن مغالين – شاعراً فى جيده وفى رديئه ، فإن الشاعر ينظم أحياناً فى لحظات مطاوعة الكلام ، وسهولة التأتى ، وأحياناً أخر تعاظله القريحة فيقع فى ركاكات ، لكنها دالة – كذلك – على نفس الشاعر ، وبخاصة إذا كان شاعراً مثل أونامونو ، تقرأ شعره فلا تفوتك خالجة ولا هاجسة مما يعترى ذات الشاعر ، فدواوينه ترجمة باطنية لحياته وزمنه ، وفيها كذلك استشراف متحرق إلى المستقبل وكشف سجف الغيب ، وسر الموت .

بيد أنه قد جنى على أونامونو رغبته العارمة فى نظم الشعر ، وكأنه يعوض ما فاته من زمن الصبا ؛ إذ كان يكتب شعراً كل يوم ، وينظم كثرة كاثرة ، ويبدو أنه لم يحكك ما كتب ، ولم يعاوده بالمراجعة شأن المحككة والمجودة من الشاعرين ، لذلك ترى – أحياناً كثيرة – فكراً منظوما ينقصه الثوب الشعرى ؛ أو يكون قصيراً عن احتواء جسد المضمون ، وأحيانا تغلبه سليقته اللغوية فيلعب بالكلام مجانساً – على طريقة البديعيين – فتغيم الفكرة فى هذا البهرج اللفظى ، وبدل أن تتوثب بالنفس ، تقعى عرجاء ، ومرات أخرى يعبر عن فكرته فى مقطوعة قصيرة ، لكنه يضطر إلى إكمال القصيدة فيقع فى امتداد لغوى يشعرك بالجهد والعرق المبذول ، لكنك – بعد كل هذا – ترى فيه ميجيل دى أونامونو فى ثورته الساخطة ، ورضاه الشاكى المتبرم وعبوسة رجائه ، وزمهرير قنوطه ، وفزعه من الموت ، ورغبته " المجنونة " فى الخلود .

لكننا – في الواقع – نفعل شيئًا إدًا حين نريغ من أونامونو أن يصوغ أفكاره عن قضايا الحياة الكبرى في ثوب موشى بالرواء والزينة ، فإن مثل قضاياه المتأملة الموغلة في صميم الوجود تتطلب صياغة خاصة غير صياغة المعانى المطروقة والأغراض القريبة ، ومن ثم لا مثلبة على الشعر ، إذا رأينا عنده ضربًا من البعد العميق الذى يحوج المتلقى إلى بذل جهد يوازى جهد الشاعر أو يقاربه ؛ لأنه ينتشل من بئر تضطرب فيها الأرشية ، ويعانق قضايا الحياة الكبرى ، وقضايا الغيب والموت ، فالذى يفتش عن الرقة والسيولة والمائية فيبحث له عن شاعر غير أونامونو ، لأنه ليس بسبيله ؛ لأن الرجل شاعر عميق الفكر ، تخونه السيولة أحيانًا ، لكن لا يخونه الفكر المتأمل ، والنظرة الفاحصة ، ولا يخونه كذلك الشعور العميق ؛ لأنه " يحس حين يفكر ، ويفكر حين يحس " كما يقول فى مستهل قصيدة له .

إلى الحريـــة

" حرية ، حرية !! " كلمة تدوى فى السماوات
أكثر منها فى أخاديد الأرض المعتمة .
سقطت أصفادها على العبيد ليست مهشمة فحسب ، بل شعثاء .
هوت من يد العبيد ، هوت إلى الأرض ،
فانتشلها القانون الرفيق الصارم ، وغل بها الأقدام .
فآضت فى أصفادها ، وبات القانون راضيًا .
ما دام لا يُسمع صياح فى أعماق مهد الأرض المصون ،
فإنكِ أيتها الحرية تسبحين فى السموات ،
أما عبيدك فيهوون إلى الأرض .
" حرية ، حرية " لو أردت أن تفكى وثاق عبيدك ،
يجب أن تكونى أنت سجينة ، اهبطى من السماوات ،
وتوغلى فى أحشاء هذه الأم المسكينة .
طالما تظل الأرض تعانى تخومًا وقيودًا ، وتظل حقول الله مراعى ،
فسوف يظل أبناؤه يجرون أغلالهم بأيديهم الحرة .

أيتها الحرية المقدسة ، اهبطى من السماوات ، وما بين ألم ودم .

سوف تولدين لنا فى يوام رائع .

تعالى أيتها المنقذة ، يا نبع الآمال ،

تنتظرك الأم المسكينة فى شغف ،

تعالى - أفسحى - على عجل - من حضنها المقدس ،

وهاتى لنا حياة جديدة .

يوم خلاص ، وحب ، ومجد ،

سيكون يوم ميلاد فى الربيع ،

يوم دم ، وألم ، وشمس ، وحياة

عندما تكونين لنا أيتها الحرية .

تنزلى من السماوات ، أيتها الحرية المجيدة

واركعى أمام العالم ، وكونى أرضية ،

وحطمى أصفاد القانون الموصوم ،

واجعلى الأرض لنا رحبة .

تيريسا

إنك أنت شعرى ، وأنت إبداعى ،

أنت ، أنت - يا تيريساى - دعامة قلبى .

أنت ، التى منحتنى الكلمة التى سوف تزرع حبنا ،

ونظرتك هى الفج الذى يتدفق فيه تيارى .

إنك أنت الضوء الذى تجسد ، وجاء إلى العالم ليموت ،

حتى ولو لم يتجسد نورك ، فإنك قد أضأت لى الحياة .

عيناك المتناصفتان ،

حمامتان تنطلقان معًا .

تجعلان - دائمًا - عربة أشواقى تحلق عليًّا .

اسم الحبيبة

كلما أنطق اسمك - تيريسا - أحيا محطماً ،

يُخيَّل لى أن السماء تقبل فمى ، وتبعث فؤادى من جديد

اسمك - تيريسا - هو حياة روحى ، وهو وردى على المسبحة .

تيريسا ، اسمك سر واستشهاد ،

استشهاد وسر .

اسمك - تيريساى - هو لى وردة وزنبقة ،

سم وكى .

أصلى لك - تيريسا - أصلى لك فى ورد دائم

متلذذاً بذكركِ .

هكذا أدرك فحسب - يا تريساى - معنى أن يُولد الإنسان رجلاً

تيريسا ، تيريسا ، كل مرة أنطق به أشعر بتوقيعه جديداً .

ينقذنى اسمك الذى هو الشاهد على الحب .

الذى أشعر به وحده .

تيريسا ، تيريسا ، تيريسا ،

لو تسمعينني - كما أعتقد -

قولي لي :

متى يتخلص القلب المسكين

من هاته الصراعات الداجية ؟

المرثيـــة الخالـــدة

أيها الزمن .. الزمن الجهم الغشوم .

أيها السر الرهيب ، لن يعود الماضى ،

أبداً لن يعود ..

أيها التاريخ العتيق ، أجل ، العتيق ،

لكنه هو هو دائماً ،

دائماً فى حضوره المرعب .

يتحلل الوعى بدوران الزمن ، فما الذى يبقى ؟

ما الذى يبقى من النور ، إذا تهشمت المرآة ؟

زحل ضار ، أيها الزمن ، أيها الزمن !!

يا سيد العالم ، إنك تقتل أولادك الحقيقيين ،

إنك القيد الذى يغل عبوديتنا .

* * *

تظل الشكاية مرة أخرى ، مرة أخرى ،

لا تنفد على الإطلاق الأغنية الأزلية .

كيف يغيض كل شىء ، ولا يبقى أى شىء ؟

يمر الزمن ، لا يرقع مرة أخرى ، لا يرقع ، لا يرقع

هل تسمع ؟ نعم ، لا يرقع ، فلا تنس هذا أبداً

حياة !!

الحيـاة موت متـواصل ، مثل النهر لا تستقر فيه المياه ذاتها ، وهكذا على الدوام ،

وفى صقال مسايل المياه يصور الحور مرتجفًا فيها على الضفاف ،

ليس لحظة ارتعاش الصورة فحسب ،

فإن المياه التى تحمل الصورة فى حركة مستمرة .

* * *

ما الماضى ؟ لا شىء ..

لا شىء كذلك المستقبل الذى تحلم به ،

ولا الحاضر الذى تعيشه الآن .

إنما هو تقلب من الفراغ الخفى إلى الفراغ الخفى مرة أخرى ، تيار يتدفق من اللاشىء إلى اللاشىء !!

كل أمل عذاب لا تكاد تباشره - بسحر أو فتنة -

إلا ويعود ذكرى ، ويبتعد ذكرى ، ..

ثم يتلاشى فى النهاية

يتلاشى إلى الأبد . .

* * *

أيها الزمن . . أيها الزمن

أعد إلى نفسى . . نعم أعد عليها

نشيداً من أوراد الحزن

أعد تلك المرثية غير المتناهية . . البكائية الأبدية .

كيف يمر الزمن ، ولا يعود مرة أخرى ؟

* * *

آه !! إنه مع من يشتكى ، ومن يكابد همًّا قديمًا ،

هو كما هو دائماً

تكرار الشكوى المستمرة هو العزاء ،

تكرارها على مسبحة لا تنتهى ،

كالمطر ، مرة ، مرة أخرى ، مئة مرة . . .

* * *

أيها الزمن . . أيها الزمن الجهم الغشوم

أيها السر الرهيب ، يا سيف الروح الإنسانى

غير المتثلم ، ما أشد فقر الكلمات !

لكى نعبر عن الظمأ إلى الخلود ، لا تكفى الكلمات

إنها لا تعبر عن شىء . . .

عطش حارق ، عطش إلى الأبد ، يطفىء النفس

التى تتأمل المحيط ، محيط الأبدية

عطش لا يرتوى ، فقط يمتلئ النظر

من محيط أبدى ، ذى شواطئ مليئة بالمرارة !!

صور ؟ تحجبها اللوعة من العرى العميق ،

تختنق موشاة فى عزلة واضحة ، غائرة ، عنيفة ،

نعم ، هى صور ، لكنها متناقضة ، متوافقة ،

بيد أن الإيقاع الموسيقى يلطف منها .

* * *

إنها المرثية التى يستهلها الصمت ،

الصمت لغة الأبد ،

على حين أن البقاء الزمنى يعيش فى عبودية .

هل حطمت الساعة ؟ هذا لا يكفى ،

هيا اضطجع لتنام .. إن هذا هو الأمان العميق إلى الأبد ،

فبالنوم العميق تتغلب على الزمن ، عدوك اللدود .

أمس ، اليوم ، غداً ،

سلسلة من الآلام ، حلقاتها مصوغة من الجزع .

* * *

تمسك بيديك المتشنجتين عرف الفرس ،

لا تريد أن تخلى سبيله ، لكنه يجرى ،

يجرى أسرع ، لا يسلس جماحه ،

كلما شددت عنانه أكثر ،

أسرع فى خطوات مجنونة

لا تلو لسانك هكذا ، يا زحل الضارى !

قد انتهى ، انتهى سريعًا عمرك أيها العدو الألد ،

وتوقفت الرحى الدءوب ، قد انتهى ..

* * *

أود أن أنام بعيداً عن الزمن ،

أود - فى النهاية - أن أذوب فى الأبد الخاشع ،

حيث يشكل الأمس واليوم والغد كياناً واحداً فحسب ،

ينعتق من الزمان الفانى ،

حيث الذكرى العذبة تعانق الأمل ، وتذوب معه ،

حيث الأنهار التى تتدفق ، تستقر خالدة فى بحيرة صافية ليس فيها تيارات مائجة ،

حيث تستريح الروح غارقة - فى النهاية - فى نهر النسيان ،

حيث يموت زحل ،

حيث يكون الزمن منتصراً .

إلى طفل مريض

" نم يا صغيرى العزيز ، وإلا يجىء الغول الذى يخطف الأطفال الذين ينامون قليلاً " .

من أغانى المهد الشعبية .

نم ، يا زهرة حياتى ، نم فى هدوء ،

فالملاذ الوحيد من الألم هو النوم .

نم ، يا طفلى المسكين ، واستمتع - بدون حزن - بما يمنحه لك الموت ، كأنه سلوى ،

كأنه سلوى ، وهدية عزيزة ، تشى بحبه لك ،

فإنه يحبك كثيراً ، يا طفلى المسكين .

سيجىء إليك مشتاقًا - فى عجلة - ليأخذك إليه ،

فالموت يحبك حبًا جمًا ، الموت العذب .

سوف ترقد بين ذراعيه الرقدة الأبدية ،

ولن ترى - يا ولدى - من ذلك الحين شتاءً

ليس ثمة شتاء ولا جليد ، ولا زهرات مقطوفة

وسوف يغنى لك فى صمت أغنية رقيقة

آه من حزن البسمة فى ثغرك المجعد !!

ربما تلامس يد الموت قلبك .

آه ، من البسمة الحزينة فى تجاعيد ثغرك !!

ترى ماذا تقول فى أحلامك لمرضعتك ؟

لمرضعتك الأبدية ، الرءوم دائمًا ؟

حيث يستريح الكل فى سلام مقدس فى باطن الأرض

عندما تشرق الشمس ،

ويتلاشى كوكبى المسكين ،

ذائبًا فى الفجر ..

سوف تمضى معه .

تلفظك الحياة ،

يا له من حظ سعيد !!

نم هادئًا ، النوم الأبدى ،

فالموت هو الملاذ الوحيد من الألم .

النــــوم

أيها الصاحب المحبوب ، القوى

فى محن الحظ الأعمى ،

والدرع فى معارك الحب حين تتحكم المشيئة ،

أنت صديق ، عطوف ، وفيّ للنفس السقيمة ،

وكاتم للسر ، أيها النوم .

إنك ظل من سلام الضجعة الأخيرة خالد عميق ورسول تائه محجوب يكتنف آفاقنا ،

إنك تولج فى نفوسنا - حين تغالب الحياة فى كبد - الطمأنينة المقدسة العذبة التى تمنحها الحماسة .

تعطى الواهن درعًا سابغة مسرودة ،

لأجل النزال الوعر ،

يالها من درع صاغها النسيان !!

أما المضبور فإنك تشد من جلده ،

مانحًا حياته سرًا من قوى الموت

تهدهدنا فى حجرك بعطفك الودود .

كما تصنع الأم مع وليدها ،

تغنينا أغانى فى نغم رقيق مفعم بالتدليل .

حين يحين موعدك ،

ترتمى أشواقنا المنتحبة .

ناعسة فى ظلالك السابغة ،

فى كعبتك الإلهية ، تنكشف الحقيقة عارية ،

صافية بدون زخرفة غريبة .

وينسكب سلام مبتهج وديع

كأنه الطائر فى عشه

آمنًا من حبالة بعيدة ،

تتنفس حياة ساكنة عارية

لائذاً بالسلوى الخاشعة .

بعيداً عن عالم الضياء والضوضاء ،

بعيداً عن شغبه ؛ ففيه تحتضر النفس قليلاً قليلاً ،

بعيداً إلى ركن خفى ،

حيث يتدفق نبع السكينة .

من مكانك القصى ، حيث يكون مأواك .

مثل الأم الرءوم ، تعطى من صدرها الهادئ وليدها
غذاءه لبنًا لذيذًا .
أنت تعطينا الحقيقة الخالدة الحية
التى تهب النفس الحقيقة الجليلة السامية
واليقين الحى الراسخ ، ونبع الصفاء الذى يعزينا عن الحظ
المعاكس ، ويعلمنا أن الحياة تحيا من الموت .
عندما نحمل - بدون حقد وتدليس - إلى ما مثالى فى كفاح
عسير ،
فإن نظرتنا تقف على تخوم المستقبل إلى الحقيقة المجردة ،
ونكون منفردين مع مخالب الإصرار ،
فإنك لن تتركنا ، بل تكون لنا رفيقًا لطيفًا ،
وتسلينا بصوتك الساكن فى لحظات الحزن ،
وتمنحنا عزلتك لواذًا لنا .
مثلما تندفع صخابة السيول من الجبال الناتئة
فى منحدرات وعرة ،
فتركن إلى بحيرة فى قرار الوادى حيث المهاد الوثير ،
وحيث النتوءات التى تنجرف تذوب فى حيوات لانهائية

هكذا تنجرف أشواقنا إلى مهادك - أيها النوم الوفى -

وآمالنا الضائعة - بفضل سكونك - تنسج من خلالك جزيرة تائهة ، جزيرة الحرية والصفاء ،

عزلة مسحورة ، سيدة متوجة بالخيال ،

جسداً وصورة ، كلما اشتاقت النفس تمتاح من أعماقك ، من خيالك العذب غير المتجسد

عزاء لهذا الوجود البئيس ! .

إنك البحيرة الساكنة العميقة

ذات الضفاف الهادئة يترسب ما ينجرف مستريحًا ،

حيث يتطهر الدنس كله فى مسيرة وانية

حيث يتحول الأمل إلى ذكرى من خلال سحر فطن دقيق .

حين تنحدر الشمس إلى المغيب ،

تاركه إثرها شعاعًا مهتزاً فى الفلك الأعلى

وغبار ذهبى فى مسيره الخاشع ،

غبار يحط فى بطء على حواشى الليل الساجى البهيم ،

هنالك ، ينكشف الإبداع المضىء الجليل ،

فى آفاق الأبد العليا

في آفاق غير محدودة

عندما تنحدر الشمس إلى المغيب

متسربة من حجرك في خداع

ويغلق بحر السماوات الهائل الغور عالمنا

وتضيع هذه الأرض المسكينة في الأبد البعيد

في عوالم لا تحصى .

هكذا أنت عندما نتلاشى من حجرك مثل الشمس

في خداعها الساحر

أيها النوم ، يا بحراً بدون أغوار

وبدون شواطئ .

إن عوالم لا نهائية تنبجس من كنفك

حيث تختلج وتتألق إبداعات الروح الحالمة

في أفق عامر بالصفاء

كما هي حالة السماء في ليلة ساجية تغريك بالصلاة ،

وانعكاسات شاحبة من النجوم المثالية القصية تنبع مما هو
قصي ، وتلف في سحر هائل أعماق الحياة الإنسانية الخالدة .

أيها الرفيق المحبوب ، القوى

فى محن الحظ الأعمى ،

والدرع فى معارك الحب حين تتحكم المشيئة

أنت صديق ، عطوف ، وفىّ للنفس السقيمة

وكاتم للسر ، أيها النوم

ضمنا فى سلام بين ذراعيك

وحطم بقبضتك القوية قيود الحس ،

ضع يدك الفادية الروحية على القلب الباكى - يا رسول الموت

وامنحنا جرعة من شرابك

دواء يشفينا من حلم الحياة .

في رثاء كلب

لقد قهر السكون بيده الباطشة الكلب المسكين ، الواجف الوفى ،

فهجع إلى الأبد فى جوف أمه الرءوم : الأرض .

لن تعود عيناه الوديعتان تحدقان فى عينى

فى أسى يغوزه النطق ، لن يلعق يدى ،

ولن تستريح رأسه الوادعة فى حجرى ،

والآن ، بأى شيء تحلم ؟ أين ولت روحك المذعنة ؟

أيوجد عالم آخر ؟ ستنشر فيه أيها الحيوان المسكين ؟ وفى الملأ

الأعلى ، هل ستخطر هناك متوثبًا إلى جوارى ؟

عالم آخر !! عالم آخر !! عالم آخر !! ليس هذا !!

عالم ليس فيه كلاب ، ليست فيه جبال معشبة .

ليست فيه أنهار سلسالة ، تناصيها الأشجار الحالمة

ليست فيه طيور ولا زهور ، ليست فيه كلاب ولا خيول

ليست فيه ثيرة تحرث .

عالم آخر !!

عـالـم الأرواح ، لكن هنـاك ألا نجـد - فى صـقـال نفـوسنا - أرواح الكائنات الحية ،

أرواح الحقول ، أرواح الصخور ، أرواح الأشجار والأنهار ،

أرواح الدواب ، وروحك أنت يا كلبى المسكين ؟ !

ألن ترقد رأسك الروحية في حجرى الروحى ؟

ألن يلعق لسان روحك - يا صديقى المسكين - يد روحى ؟ آه ! !

ألن تعود - كلبى المسكين - تحدق عيناك فى عينين كانتا تقودانك ؟ !

امض ، فـالأرض التى تحتـويك ستـضـم أيضًا من كـان بالنسبـة لك مثلك الأعلى ، وإلهك ، وجاهك ،

لكنه - صاحبك الأسيان - هل سيلاقيك فى العالم الآخر ؟

عالم آخر ! !

عـالم الأرواح الطاهرة ، عـالم الطهارة الروحيـة ، يا لهـا من طهـارة رهيبة ، باطلة ، خاوية ! !

ألا أعـود فـأراك يا صـديقى الأليـف ؟ هل سـتكون هناك ذكـرى ، محض ذكرى ؟ تلك الذكرى ، ألا تكر أمام عينى ؟

ألا تطفر رشيقة بذنبك الشائل ؟

ولا تلعق يد روحى ؟ ولا تحدق فى عينى ؟

تلك الذكرى لن تكون شخصك ذاته ،

ألن تكون أنت سيد نفسك ، وأنت تحيا حياة أبدية ، وأحلامك قد تحققت ؟

وهل هى الطيبة التى جعلتك تتبع فى وفاء صوتى الآمر ؟

لقد كنت بالنسبة لك دينك ، وكنت مجدك ،

وقد رأيت الله فىّ ، كانت عيناى نافذة لك على العالم الآخر

هل كنت تعلم - يا كلبى - مدى حزن صاحبك بسبب موتك ؟

سيموت صاحبك أيضًا فى يوم ما !!

مت ، وعيناك محدقتان فى عينى ، لعلك كنت تبحث فيهما عن المجهول الذى كان يكتفنك .

وحدقتاك الحزينتان اللتان تعودتا أن تتجسسا على رغباتى ، تبدوان ، وكأنهما تتساءلان : إلى أين نمضى يا صاحبى ؟

إلى أين نمضى ؟

لعل طول عشرتك للآدميين - أيها الحيوان الأعجم - منحتك حنينًا غامضًا لا تعرفه الذئاب ،

ولعلك حينما كنت تريح رأسك فى حجرى ، كنت تحلم - مهومًا - أن تصير آدميًا بعد الموت .

تصير آدميًا يا كلبى المسكين !!
مهلاً ، صديقى المسكين ، يا من تؤمن بى فى إخلاص ، عندما أرى عينيك اللتين تحدقان فىّ ، تحتضران ،
عندما أرى نظرتك الجامدة ، وكانت قبل رقراقة ،
أنا أيضًا أسائلك ؟ إلى أين نمضى ؟
تصير آدميًا يا كلبى المسكين !!
تأمل أخاك : إنه كلب آخر مسكين ، يقعى بجانب مقبرة صاحبه الدفين ينبح السماوات ، يناشد الموت .
لقد رحلت أنت فى وداعة ، رحلت فى سكينة ،
واستسلمت لى فى خضوع منقطع النظير فى الحياة .
ولكنه : ذلك الكلب الذى يئن إلى جانب قبر إلهه وسيده ، لم يذق الموت ، وأنت حينما رحلت ،
إنما انتقلت لتحيا فى ذاكرتى ، إنك لم تمت موتًا تامًا ، لكن أخاك المسكين يُرى ميتًا ، وهو حى ، يُرى مفقودًا ، ينبح السماوات ، يلتمس الموت .
لترقد فى سلام - رفيقى المسكين - لترقد فى سلام ،
فإننى أشد رزءًا منك
يبكيك الآل .
يبكون حين يموت الكلب الذى كان يلعق أيديهم ،
الذى كان يحدق فى أعينهم متسائلاً :
إلى أين نمضى ؟

قصيدتان من أنطونيو ماتشادو

(١٨٧٥ - ١٩٣٩)

١ - العيون

(أ)

حينما ماتت حبيبته ، تأمل فى بقائه هرما فى المنزل المغلق ،

وحيدًا ، مع ذكرياتها .

ومع المرآة حيث كانت تطالع فيها صبحًا مشرقًا ،

مثل الذهب فى خزانة البخيل .

ودَّ أن يحتفظ بكل الأمس ، فى المرآة المصقولة

وأن يحبس الزمن عن المسير .

(ب)

لكن فى الذكرى السنوية الأولى ، تساءل : كيف كانت عيونها ؟

عسلية . أو سوداء ، خضراء مزهرة أو رمادية

كيف ؟ يا إلهى لست أتذكر

(ج)

ذات يوم ربيعى ، خرج إلى الشارع ، ومضى صامتًا ، الحداد مضاعف ، والقلب مغلق ...

عبر نافذة في زاوية معتمة ، رأى عينين تومضان ....

أطرق ، تابع طريقه ....

لقد كانتا مثل هاتين ... !!

٢ - أغنيات إلى مدرس

١ - فرنسسكو دى إكاتا ، مدرس لا يجد لنفسه عزمًا إلا مع الحسرة .

٢ - من جنسه العريق يستمد كلمته الموجزة ، ذات الحكمة العميقة .

٣ - مثل شجر الزيتون ، يحمل ثمرًا كثيرًا ، ويمنح ظلاً ناحلاً .

٤ - فى شعره الواضح يتغنى ويتأمل بدون ضجيج ولا قطوب .

٥ - إيقاعه محكم ، كالشجر المغروس - فى إحكام - بمحاذاة النهر .

٦ - أغانيه فى صفاء الماء ، الذى يبدو ساكنًا ، وغير ساكن ، إلا أنه ليس لديه سرعة المضى إلى البحر .

٧ - أغانيه أرجة بعود الند والصبار ، وبالحب العتيق ، وبالشمس الأرجوانية ، وبالفاكهة الناضجة ذات المذاق اللذيذ .

٨ - يا فرنسسكو دى إكاتا ، أنت من إسبانيا القديمة ،

ومن إسبانيا الحديثة ، لتنقش على دينار قيثارتك ، ومحياك النبيل .

بياسبيسا شاعر الحمراء

فرنسسكو بياسبيسا من الشعراء الإسبان الذين تخطتهم الشهرة وما تخطاهم التقدير ؛ لأن الشهرة غالبًا لا تخضع للقيمة الأدبية أو العلمية ، إنما تخضع لظروف سياسية أو اجتماعية أو شخصية ، وعلى الأديب الذى يسعى للشهرة أن يتسلح لها بأدواتها غير الأدبية ، وليس كل أديب مؤهلاً بحكم تكوينه النفسى وظروفه الشخصية لاكتساب هاته الأدوات ، فيركن - مضطرًا أو مختارًا - إلى منطقة الظل مبتعدًا عن الوهج الذى تشعه عوامل لا صلة لها بالأدب ، راضيًا بقسمته أو غير راضٍ ، أو غبينًا فى الأغلب الأعم من الأحوال .

وقديمًا عرف الناس التعصب لشاعر على شاعر ، والتعصب القبلى أو المذهبى (فنيًا أو سياسيًا) ، لكنه فى زمننا هذا بات تعصبًا منظمًا ؛ لذلك تكون الشهرة غالبًا - والحال هذه - شهرة عوراء تقتاد الغافلين ، وتحجم عن النابهين المستحقين ، فلا تشرف من تلحقه ، إن لم تصمه فى نظر الفن وفى نظر الناس ؛ لأن الزمن لا يعتم أن يكشف هذا العوار فى المقاييس ، وذلك الأفن فى التقدير ، فيمحو هذا الغبار الذى أثاره كر الغداة ومر العشى .

وشاعرنا بياسبيسا من الشعراء الذين بخسوا أظلم بخس فى حياتهم وبعد مماتهم ؛ لأنه البخس الذى حجب قدرته الفنية فى تناول الموضوعات الشعرية ، وهى قدرته على النفاذ ، وعلى خلع ما هو إنسانى على موضوعات بسيطة يومية ، ربما لا تلفت نظر غيره من الشعراء ، وقدرته أيضًا - وهذا موضوع يمسنا نحن العرب - على التعاطف النفسى الغامر مع آثار الأندلس ، وبخاصة غرناطة والحمراء وجنة العريف ، ووقوفه الطويل أمام الطلول العربية ، وهو تعاطف يحسب له - فنيًا - لأنه عالج هاته الموضوعات معالجة فنية وإنسانية ، ولعل تعاطفه هذا ما كان يرضى - فنيًا وسياسيًا - نظر مواطنيه ، ثم إن الرجل كان نمطًا نادرًا فى حياته ، بوهيميًا لا يعبأ بالعرف الاجتماعى التقليدى ، وكانت صورة الفنان - فى أيامه - تعلو بقدر بوهيميته ، فشغل الناس بحياته إنسانًا أكثر منه شاعرًا .

وبياسبيسا من الشعراء الإسبان القلائل الذين " أدمنوا " الوقوف أمام قصر الحمراء ؛ فأخرج ديوانًا كاملاً عنه " سحر الحمراء " : وقف أمام أبوابه ونوافذه ، وساحاته ، وقاعاته . وقف مستعبرًا ، متأملاً ، حزينًا فى أغلب أحواله ، وأخرج عن جنة العريف ديوانًا كاملاً " ليالى جنة العريف" : غنى لأزهارها ، وطيورها ، ومياهها ، ومن يقف عند الحمراء أو جنة العريف فلابد أنه يغنى ذلك الغناء ، ويغمره ذلك الأسى الخالد ، وأذكر فى هذا الصدد وقوف أستاذنا الكبير أبى فهر محمود

محمد شاكر أمام الأطلال في غرناطة ربيع ١٩٧٧ - وقد سعدت بصحبته الكريمة - وما رأيته جائش الشعور كما رأيته أوانئذ ، مزيج من الأسى والاعتزاز بالأسلاف كان يتمثل في تعليقاته التي كان يقولها لي ، ويدونها في مفكرته ، وقد وعد أن ينشر رحلته الأندلسية في كتاب ؛ فلعله محررها فناشرها للناس ؛ لأن انطباعاته الشاعرة يسطرها قلمه البليغ لابد أن تكون نمطًا متميزًا في أدب الرحلات ، وما زلت أذكر العنوان الذي كان يزمع أن يتصدر رحلته وهو " رحلة أعشى إلى الأندلس فارتد بصيراً " ، وكانت الرحلة لإجراء عملية جراحية في عينيه ، ولعل سيادته يضمنها الشعر الذي نظمه أثناء هذه الرحلة الميمونة .

وبياسبيسا على كثرة ما نظم من شعر ومسرحيات شعرية يبرز بين نتاجه موضوعات الأندلس عمومًا وغرناطة والحمراء بشكل خاص ، فله ديوان " الأندلس " و " ليالي جنة العريف " و " سحر الحمراء " ومسرحية " قصر اللؤلؤ " ، وترجمها لطفي عبد البديع ، و " ابن أمية " ، و " عبد الرحمن الأخير " وكتبت نثرًا ، إلى جانب أنه اهتم بشعراء المهجر في البرازيل فترجم " على بساط الريح " لفوزي المعلوف إلى الإسبانية ، وكان رجلاً جواب آفاق ، عرف كل أمريكا اللاتينية ، وتأثر بشعرائها ، وكان غزير النتاج متنوعه ، مارس الشعر والمسرح والقصة والمقال الأدبي والنقدي ، وهو ينتسب إلى الاتجاه المحدث في الشعر الإسباني ، ذلك الاتجاه الذي يولي الشكل والأسلوب اهتمامًا بارزًا ، ومن أبرز شعرائه مانويل ماتشادو ، وروبين داريو ، لكن شاعرنا برغم

كل الروافد الشعرية ظل " أندلسي " المولد والمزاج ، ولعل القصائد التي نقدمها له تشي بشيء من هذا .

ولد الشاعر في " لوخر " من أعمال المرية سنة ١٨٧٧ ، ودرس في جامعة غرناطة ، ورحل إلى مدريد وهو في سن العشرين ، واختلط بالوسط الأدبي ، ونشر في عدة صحف ومجلات كانت تصدر في ذلك العهد ، ويتميز شعره بالسهولة أي سيولة النظم وتأتيه ، وتبرز القافية عنده بشكل بديع ، وكان يحرص عليها جداً ، برغم أنه لا يرى ضرورتها إذا قيدت حرية الشاعر ، وخيرها عنده ما جاء عفواً ومطاوعة للمشاعر بحيث لا تسترق الشاعر ، وعنده أن الشاعر يُولد شاعراً بالطبيعة .

وشاعر مثل بياسبيسا ربما لو تغنى بقشتاله لكان له حظ أفضل بين بني جلدته ، لكنه ظل وفيًا لأندلسه وغرناطته وحمرائه إلى أن هلك سنة ١٩٣٦ ، فلنظل نحن أوفياء لشعره وأدبه بالقدر الذي كان وفيًا به لأسلافنا وسلفه ، وما هو بالقليل .

١ - الأندلس

إذا تهت فى فجاج الدنيا
فابحث عنى فى الأندلس
هنالك حيث القياثر
وكئوس النبيذ
ونساء تحمل القرنفل
وتتدثر بشيلان مانيلا
هنالك حيث أغنى لأرضى
أرض مريم العذراء
هنالك شارع أبيض
ونافذة حديدية مزهرة
هنالك حيث ترونني
أغازل السمراء الغيداء
أحدثها عما تشيعه عيناها عبر شالها

* * *

الأندلس أرض الثيران والدم
أرض الحب ، والغجر
حيث نظرة واحدة أحيانًا تردى المرء قتيلاً
يا لها من سعادة – أرضى المقدسة –
وأنا أخطو فوقك من جديد .

٢ - غيرة شرقية

لقد شاهدوك بالأمس

تتحدثين مع رجل آخر

سأنزع لسانك

لئلا تتحدثى مع أحد

يقولون إنك كنت تحدقين فيه

بهاتين العينين الواسعتين

سأسمل عينيك

لئلا تنظرى إلى أحد

يقولون إن الذى كنت تتحدثين معه

هو حبيبك الجديد

سأستل فؤادك . . .

هكذا لا تحبين أحداً .

٣ - ماء غرناطة

من يهب لى - مرة أخرى - جرعة من أعماق ينابيعك .
يا ماء غرناطة العذب ، يا من تطفئ الأسى والصدى
آه ! يا شارع سان ماتياس
مَنْ فى وسعه أن يعيدنى إليك
لأتوقف عند نافذة ، أحدث من أعرفه أنا
يا غرناطة ، يا غرناطتى ، يا مهدى حيث نشأت
يا عذراء الآلام التى وهبتنى القوة والصحة
كى تستطيع عيناى أن تعودا لرؤيتك من جديد
يا غرناطة ، يا غرناطتى ، مَنْ فى وسعه أن يعيدنى إليك حتى
ولو كان علىَّ أن أحفى قدمى
طارقًا بابًا بابًا ، دون طعام ولا ماء .
إذا عدت للحمراء
حتى ولو مت إثر العودة
فإنى أبارك الموت
لأنى قد رأيت الحمراء .

٤ - وداعًا جنة العريف

لقد ذهبت الأشعة الصباحية شرفات الواجهة الشرقية

(يا بلبل الحب لماذا لا تشدو ؟)

(ربابة الأمل لماذا لا تغردين ؟)

لقد أبطلهما السحر ..

بقيا وحدهما - فحسب - يحلمان بين الضباب

وبين الحديقة بأظلالها وأطلالها

ومع الروح بأحلامها وأشجانها

وداعًا فردوس الحب والحنين

حيث باتت قصائدى الحزينة سجينة

عندما نأيت عن خلواتك ،

أشعر بألم غائر

كأنهم ينزعون عظامى من جذورها

الغائرة فى اللحم الحى .

٥ - اللؤلؤة الأخيرة

عندما حانت ساعة الأمير الأخيرة

أراد أن يقسم بين حريمه ثروته الملكية

تلك التى ادخرها فى صندوقه المصنوع من الصندل .

براقع فى ذرعها أن تطوق الفجر

ألماس يصلح لخدود الملكات

عقود من الزبرجد تشعل الشمس ، وتضوئ القمر .

حين لم يبق فى الصندوق شىء

نظر إلى " ثريا " وهى تنشج ... حين رآها

أحس أن الدموع تزدحم فى مآقيه

قال لها بصوت حزين :

لم يزل حبى يحتفظ لك بلؤلؤة :

إنها الدمعة الأخيرة فى حياتى .

٦ - الحمراء وجنة العريف

إنها الزوجة بين حريمى الساحر
وأنت الفضلى التى تشاركنى - بحبها - هذيان فنى
وحتى نفسى التى عشش فيها الطحلب من النوم .
إنها أقرب إلى الإمبراطورية ، وأنت أقرب إلى العطف
كيف تحسدينها ؟ عليها أن تحسدك أيضًا
فإذا كانت هى حصن الحب
فإنك أنت الفردوس حيث يستريح الحب .
إنها تتدثر بالذهب ، وأنت تتدثرين بالفضة
هى السلطانة الشماء الخطيرة
إنها عائشة الغيور التى تقتل . .
إنها من الحب ، حين يشتعل الحب فى مهده
وأنت يا مريم العذبة الرقيقة
الزهرة البيضاء التى تموت من الحب .

٧ - أيام الطلب فى غرناطة

هل تذكر أيام الطلب ؟ حين كنت تقضى الليل كله
تبغى من القهوة حماسة ، ومن التبغ حيوية ،
على شمعة ذهبية مستنداً بمرفقك على مائدة صغيرة
مترنحًا فوق كتاب ، إلى أن ينثر ضوء الصباح
حبات الطل فوق نافذة صغيرة ،
وتدق أجراس الصلاة تنادى القانتات للصلاة الأولى
وفى الأصائل - عند الحمراء - على ضفاف جدول
حيث تفوح الحشائش بعبق البنفسج
أظل أطالع بين الينابيع والزهور .
وبعد ذلك أنسى الكتاب المقرر لأطالع " ثوريا "
ثم أهجر ديوان الشاعر الإلهى
كى أصيخ إلى تغريد البلابل فى الأيكة .

٨ - ناظرًا إلى غرناطة

آه يا غرناطة ، بأى حلم قديم تتشبثين ؟

وبأية مرايا خيالية تشخصين ؟

عبر نوافذك الحديدية بألحانك المسائية

وجمال أميراتك الشرقى

عن ليالى الغرام ، والرغبات الرومانسية

وربابتك الذهبية تحكين لنا

أشواق أعشابك البديعة

يقبلها قمرك .

روحك المرمرية المأساوية الغنائية

تبكى عبر آلاف من عيون نوافيرك

وأنا لا أدرى أية أحلام رومانسية تلك .

بينما الهلال يرفرف فوقك

كم يود أن يسطع مرة أخرى فوق جبينك .

٩ - البـــاب الحديـــدى

(أ)

يطلقون عليك " باب الفردوس "

لأنك ترصع مـدخل القـصـر " المعـجـزة " الذى حلم به البـشـر ..

وحيـث وضع اللّه خـاتمه على التطريز الحديـدى المنقــوش بالبــاب

قوساك يمثلان مثل حارسين

يدمدم فى الظلام بريقك البرونزى

إنك درواس يدجج الطوق الذى يحـمى قطيع الظبـاء الســمـاوى

عندما كانت " أبو عبد الله " ينشج عند عتبتك

رمته " عائشة " بهذه الكلمات الجارحة

بينما كانت عيونها الزرقاء الواسعة تتحدى الشمس :

ابك مثل النساء مُلكًا مضاعًا

لم تحافظ عليه مثل الرجال .

(ب)

مسكين أبا عبد الله ، أنا أعرف ألمك وبكاءك

إننى كذلك فقدت مملكتى ، وغرناطتى

غرناطة الأحلام ، ومملكة الفتنة

لم يكن فى ذرعى أن أنقذ ذخائرى القيمة

حتى ولا قلادة تخفى تحت العباءة

كان من الأفضل أن أعرض على سيفى

من أن أفقد جناتى التى أحن إليها اليوم فى غنائى

من أن أرى " حمرائى " المعطرة مرتعًا للغوغاء

مسكين - أبا عبد الله - أعرف أساك القاتل ،

عندى فقرك ، وحب مثل العكاز

ها قد هوى الحب صريعًا مثل أزهارك

إن حظى الأسحم أشد قساوة من حظك

إنك دفنت مريم فى بستان مزهر

بينما أنا دفنت مريمى وسط الصحراء .

مانويل ماتشادو
شاعر يتغنى بأصله العربى

لا أحد يمثل تيار الحداثة فى الشعر الغنائى الإسبانى كما يمثله مانويل ماتشادو (١٨٧٤ - ١٩٤٧) ، شقيق الشاعر الكبير أنطونيو ماتشادو ، وأولهما أكبر من الثانى بعام واحد . أشبيلى المولد ، فرنسى التكوين ، عاش فى مدريد بعد قفوله من باريس حتى هلك سنة ١٩٤٧ .

رجل من ذوى النفوس البسيطة ، التى يخف محمل الدنيا على صقالها ، فلا تتزاوج فيها الخواطر ولا تتوالد ، ولا تكربها ارتجاجات القلق والحيرة التى تعصف بنفوس من طراز آخر مثل الشاعر ميجيل دى أونامونو ، فإن صاحبنا ماتشادو راض الحياة كما راضته ، واستسلم لها فى خدر لذيذ ، على نمط يذكرنا بأسلافنا من شعراء الأندلس الذين شربت أرواحهم خلاصة طبيعة الأندلس ، بما فيها من ليالٍ حالمة بعطر الموسيقى ، تنبعث من أوتار عود ينوح حين يشدو ، ومن حنجرة عميقة ، يتجاوب صداها فى أبهاء القصور العربية ، فترددها نوافير المياه ، وزهر البرتقال الغافى فى الأمسيات الرطيبة .

لم يسلك مانويل مسلك أخيه أنطونيو فى الانسلاخ من جذوره الأندلسية الإشبيلية ، والارتباط بقشتالة والتغنى بها ، والانطواء على نفسه ؛ لذا كان أنطونيو من شعراء جيل الثمانية والتسعين ، الذى كان صوت إسبانيا آنذاك ، والذى أحس بعمق الكارثة التى أحدقت بإسبانيا بعد ضياعها لمستعمراتها ، بل سلك مانويل اتجاه الحداثة الذى تزعمه روبين داريو شاعر نيكاراجوا الأكبر ، ذلك الاتجاه الذى حل محل الرومانسية بعد جمودها وإفلاسها ، وإن كان لم يتخل عن بعض غنائمها وأسلابها ، بعد إضفائه عليها صبغة خاصة ونفحة شخصية ، وقد اطلع مانويل أثناء إقامته فى باريس على التيارات التى كانت تموج بها العاصمة الفرنسية ، وصادفت البرناسية والرمزية هوى فى نفسه ، وامتزج كل هذا المحصول فى نفسه امتزاجًا عميقًا خرج منه هذا النتاج الخصب ، بعد أن أراق عليه وهج نفسه ، وعبق روحه ، ولون عينيه ، وغدا شاعر الأندلس بحق .

والغريب أن الأندلس بعد العصر الإسلامى مازال - حتى الآن - أرض الشعر ، ومنبع الإلهام ؛ فمعظم الشعراء الإسبان ولدوا فى جنوب إسبانيا (الأندلس) الأخوان ماتشادو ، غرثيه لوركا ، ألكسندرى - الفائز بجائزة نوبل عام ١٩٧٨ - خوان رامون خمينث - نوبل - ١٩٥٦، وغيرهم كثير ، أصبح الأمر ظاهرة حتى لدى الإسبان أنفسهم ، ما دفع بالشاعر الكبير رفاييل ألبرتى إلى نظم قصيدة عنوانها " الشعراء الأندلسيون " يُتغنى بها الآن ، وتُباع - ملحنة - على أشرطة التسجيل .

استأثرت الأندلس وتراثها الشعبى بنصيب ضخم من قصائد مانويل ماتشادو ؛ فقد استغل الموضوعات الشعبية الأندلسية ، وانتزع من نمط الغناء " الكانتى خوندو " أو الغناء العميق منجمًا لا ينفد ، وغدت القيثارة الأندلسية ، وأغانى الغجر ، والفلامنكو ، وذكريات التاريخ العربى ، وتاريخ أسلافه وأسلافنا تشكل كل هذه الأشياء وغيرها خطوط لوحته الشعرية ، ولا ينسى أبدًا أن يغمس ريشته فى نبيذ الأندلس المعتق .

لم يكن مانويل ماتشادو غزير النتاج إذا قيس بشقيقه أنطونيو ، نذكر من أبرز نتاجه ما يلى : " صور أشبيلية " كتب نثرًا ، وست مسرحيات اشترك فيها معه شقيقه . أما شعره فيبرز منه دواوينه : " روح " ١٩٠٠ ، " نزعات " ١٩٠٥ ، " العيد القومى " ١٩٠٦ ، " أشبيلية وقصائد أخرى " ١٩١٨ ، إلى جانب بعض الدواوين الأخرى .

تطفر فى شعره نزعة حسية أقرب إلى الأبيقورية ، لكنما يكبحها شىء من الحزن المغلف بالحنين الغامض ، وشىء من التطلع إلى التنفس فى الأحلام ، ويلوح بين الحين والحين سحابة تشاؤم ، لكنه ليس تشاؤم النفس المغلقة الكنود ، لا ترى النور ، ولا يشوقها أن تراه ، ليس تشاؤم النفس الناضبة من العطف والشعور ، إنما هو تشاؤم النفس المفطورة على العطف ، ليس بينها وبين النور أو الحب حجاز صفيق من الصمم والبلادة والأنانية ، تشاؤم يجد سلواه فى حضن الطبيعة ، وعزاءه فى ملاذ الحياة ، إنه تشاؤم محب للدنيا ، متعلق بحبالها ، يزهد فيها ليأخذ نصيبه الأكبر من حلوى الحياة .

أما طريقة التعبير عند مانويل ماتشادو فقد رسمتها موضوعاته القريبة ، وأغراضه البسيطة ، جاء التعبير مساوقًا لطبيعة هذه التجربة بسيطًا ، يتدفق فى سلالة عذبة ، لكنها البساطة العميقة ، أو السهل الممتنع - كما يقولون - أو هو السهل الذى يمتنع على كثيرين ممن يروضون القول ، ويصرغون الكلام ، يتأنق الشاعر كثيراً فى التعبير ، لكنها الأناقة التى لا تحس أنها أثقلت العمل الفنى بأوزار التكلف والصناعة التى يقع فيها كثيرون من أصحاب الأناقة ، تشعر - حين قراءته - أنه كان يلقى بباله إلى الكلام فيطاوعه ، وجاءته سهولته هذه من سهولة الشعور عنده وبساطته ، وقد أسلم مقاليده للفن ، فأسلم إليه الفن مقاليده ، وتبرز القافية عنده بروزاً معجباً رائقًا ؛ فكأنك تغنى حين تقرأ القصيدة ، التى تهز أعطافك قسراً للموسيقى السارية فى تضاعيف كل كلمة منها ، إنها موسيقى شجية بما تحمله من شحنة عاطفية تدع فى نفس المتلقى شعوراً لاعجاً حزيناً - ربما أضاعته الترجمة النثرية .

ورجل هذه طريقته فى التعبير ربما يقع فى السطحية والمباشرة الساذجة ، لكن صاحبنا كان فى الأعم الأغلب بنجوة من هذا المنزلق الوعر ، وكثيراً ما يستخدم الشاعر بعض الكلمات فى نطقها العامى الأندلسى فتزيد أسلوبه ملاحة ، وتحل محلها المحتوم .

شعره - فى إيجاز - صورة حية لنفسه ، ولليالى الأندلس الساهرة، وانعكاس لصور الحياة كما تراءت فى صقال نفس هذا الشاعر المرهف الفرد ، الذى نحيى فيه مزاجه العربى الأندلسى ، ونرد له تحيته التى حيا بها أسلافنا وأسلافه العظام .

١ - غنـــاء

نبيذ ، وعواطف ، وقيثارة ، وشعر

هذه الأشياء هي قوام الغناء في وطني

غنـــاء . . .

الذى يقول " غناء " يقول : أندلس .

فى الظل السجسج بجانب خص الطين القديم

فتى أسمر يعزف على القيثارة

غنـــاء . . .

شيء يداعب النفس ، شيء يتوغل فيها

تغنى القيثارة ، ينوح العود

يمر الزمن لحظة إثر لحظة

غنـــاء . . .

ميراث محتوم تركه لنا الجنس العربى .

لا تبال بالحياة ، فإنها قد ضاعت

وبعد كل شىء ، ما معنى الحياة ؟

غنـــاء . . .

أن تغنى الألم ، فيُنسى الألم

* * *

أم ، أسى ، حظ ، أسى ، أم ، موت

عيون سود ، سود ، حظ أسود . . .

غنـــاء . . .

ينسكب فيه روح الروح

غناء ، غناء من وطنى

الذى يقول " غناء " يقول : أندلس .

غنـــاء . . .

ليس فى قيثارتى شىء غير هذا .

* * *

٢ - الحب

أقبلك فى فمك الوردى الشنيب ،

لكن عطشى لا ينطفئ

في كل قبلة
كم أود أن أرشف روحك خالصة !
إنني قد وقعت في حبك
والحب داء عضال
لا يشفيه حتى الموت
حسب ما يقوله العشاق
أجن حين أسمع حفيف مئزرك
وألامس يدك
فتميتني
وتحييني
لو وددت أن أكون النسيم
الذي يعانقك
لو وددت أن أكون الدم الذي يتدفق في عروقك
تقاسيم جسدك
هي مثال اشتياقاتي
وسبيل قبلاتي
وقبلة نظراتي

أشعر حين أضم خصرك

بشك يقتلنى

كم وددت أن أضم جسمك

وروحك فى عناق واحد !

إننى سقيم بك

ولا آمل فى الشفاء

وأنت - فى ظمأ هذا الحب المجنون -

عطشى وريى

لعينة تلك الساعة

التى دخلت فيها منزلك

ورأيت فيها عينيك السوداوين

وقبلت شفتيك القرمزيتين

لعين ذلك العطش

لعينة هاته المياه . .

لعين هذا السم الذى يسمم

لكنه لا يصرع .

* * *

٣ - المغيب

تخبرنى عيناك

أن شفتيك القرمزيتين لا تجدان من يقبلهما

ولا يجد خصرك الهفهاف من يحتضنه

ليس لك من تجوس يداه العاشقتان

فى شعرك البديع

ولا من أحد

يطل فى عينيك السوداوين

تقول عيناك ، إنك والمساء وحيدة

تتنهدين ،

وتقولين - فى الظلال الفاترة -

الأشياء الفظيعة . . .

أشياء الحب

التى لم تطرق سمع أحد

الأشياء التى يقولها من يعشقون فى صدق

فى الساعة الرابعة

فى الساعة الرابعة

وقت السحر

حينما يهجم شيء من الصقيع على المخدع

ويتنفس الفجر

عندما أخلد إلى النوم

مرهقًا وحيداً

أفكر في شفتيك القرمزيتين

وفي شعرك ، وفي عينيك السوداوين .

تقول كلمات الموشحة :

في الساعة الرابعة

تكون حبيبتي نائمة

بين ذراعي .

٤ - أشبيليات

السيجيريا [١] الغجرية هي موشحة الليالي الإسلامية

عيون سود ، وصباح

(١) يقال إن هذه الكلمة ذات أصل عربي ، معناها صغيرية من الصغر ثم تحولت هذه الصيغة إلى صورتها الحالية في أغاني الغجر .

تحيا الموشحة دائماً من الحب والموت
هى صوت القلب ، أسير الأسى والحظ ..
بكائية الهوى العميقة
بيد أن الموشحة ضياء الفردوس الأندلسى
المجنحة الربيعية
الثرثارة ، العذبة
التى تغنيها كل أشبيلية
هى السيجيديا الأشبيلية المرحة
المليئة بأشعة الشمس ، وخفة الظل .

٥ - الزنبـــق

إننى مثل أولئك الناس الذين قدموا إلى أرضى هذه .
من جنس عربى ، جنس صديق قديم للشمس ،
أولئك الذين غنموا كل شيء ، وخسروا كل شيء .
وقد نبتت روحى من عبق الزنبق الأندلسى
ماتت إرادتى ذات ليلة مقمرة
كان من الرائع فيها ألا نفكر ، وألا نحب

وكل ما أحلم به أن أستلقى خلى البال
وبين حين وآخر أرشف قبلة ، وأتذكر امرأة
ليس لروحى شقيقة الأصيل تخوم
والزهرة الرامزة لشوقى الوحيد
هى زهرة ليس لها نفح ، ولا شكل ، ولا لون
تولد من أراض مجهولة .
قبلات ، بيد أنها غير ممنوحة ، أمجاد يدينون لى بها !!
كلها مثل نسيم مضيء يسرى من أجلى !
فلتجئ بى الأمواج ، ولتذهب بى الأمواج
ولاتجبرنى أبداً على اختيار الطريق
طموح ؟ ليس لدى . حب ؟ ، ما شعرت به
لم أحترق أبداً بنار اليقين ، ولا بنار الشكر
كان لدى عشق غامض للفن . . . والآن أضعته
لا يغوينى الفجور ، ولا أعبد الفضيلة
لا يرتاب أحد فى عراقة محتدى
فالمأثرة والعراقة تورث ولا توهب
بيد أن رمز بيتى وشعارى

مثل سحابة حائرة تكسف الشمس المغرورة
لا أنشد منكم شيئًا .. ولا أشعر نحوكم بحب ولا ببغض
ودعونى أفعل من أجلكم ما تستطيعون فعله معى
ولتبذل الحياة ما فى وسعها لموتى
فإنى لا أبالى بأن أحيا
ماتت إرادتى ذات ليلة قمراء
كان من الرائع فيها ألا نفكر وألا نحب
وبين حين وآخر قبلة بدون رغبة
قبلة كريمة ، لا ينبغى ردها بمثلها .

٦ - الأسى

" من أغانى الغجر "

إن أساى من نوع ردىء ؛
لأنه أسى لا أود أن أبرأ منه
لقد جاءنى دون أن أدرى من أين ،
مثلما تجرى المياه إلى البحر ، والزهور إلى شهر مايو
والرياح إلى الغابة

جاءنى ، وخيم فى فؤادى
كمرارة القشرة الخضراء
فى الليمون الأخضر
مثل جذور اللبلاب
يتغذى الأسى فى فؤادى
وعروقى بالدم
لست أدرى من أين يلتف بجسدى
ذلك الحبل ، ولا من أين لم يلتف
لست أدرى ...

٧ - ابنة صاحب الخان

" كانت البنية تصمت ، ومن حين لآخر كانت تبسم "
ثيرفانتس .. دون كيخوتى .

" كانت البنية تصمت . وكانت تبسم "
صمت إلهى
وبسمة عذبة

لماذا تمثلان فى ذاكرتى ؟

الخان خال .

وابنة صاحب الخان تغمز

بعيون وسنى

وصاحبة الخان تغزل

وحضرة صاحب الخان عند الباب

يترقب إذا ما كان أحد قادماً . . .

فالريح تكتسح الريف

. . . وبجانب النار

تجلس البنية –

تحلم بكتب الفروسية –

تنظر بعيونها الزرق الأصيل الذى يموت وراء الأفق

بنية جافية أرض لا منشا

تغوص فى ليلة باردة .

ميجيل إرناندث

شاعر جاهلى مناضل

شاعر نصحبه بين الحين والآخر ، فنحمد صحبته ، ونعود إليه عودتنا إلى الصديق الأثير الذى يفضى إليك بهمومه جليلة وتافهة ، وتفضى إليه أنت كذلك فيواسيك أو يسليك أو يتوجع على رأى شاعرنا العربى القديم .

شاعر جاهلى ، وإن كان يعيش فى هذا القرن ، أشبه ما يكون بالشعراء العدائين الذين تطبيهم الحرية والحقول العارية ، والنضال ، والعدالة ، وتكرث مشاعرهم البسيطة النقية الأعراف التى تواضع عليها من يخونونها فى وحدتهم ، وإن تظاهروا بها مدارةً ورياًء .

صبى مهمل فقير على حظ ضئيل من الوسامة ، وحظ أضأل منه فى مجال التعليم النظامى ، عيناه نفاذتان واسعتان تلمعان ذكاءً وقلقًا وفى حركة دءوب ، وفى رضى يخالطه بعض سخط يحدو عنزاته وغنمه بين حقول أريوله ، نهادها ووهادها ، يضجره كثيرًا أن تشرد واحدة عن القطيع ، فيوقظ الصدى بتصفيره ، بينما كانت الرياح تسرى حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد .

حين أتم العاشرة بعث به أبوه إلى مدرسة يديرها الآباء اليسوعيون ، وما عتم أساتذته إلا يسيراً حتى لاحظوا ذكاءه الطبيعى ، ونهمه للقراءة ، وكان صاحبنا ميجيل يقرأ كل ما تقع عليه يده ، لكن الأب لم يستطع أن يواصل ولده الدراسة ، مفضلاً أن يساعده فى مهنته ، ولضيق ذات اليد ، يقوم الصبى بتوزيع الألبان على المنازل ، بيد أنه ظل فى وسعه دائمًا أن يطالع الشعر والروايات حين يهرب من الحقل أو حيت يلتقى بثلة أصدقائه الذين كانوا يُعيرونه بعض الكتب ، من بين هؤلاء الأصدقاء رامون سيخيه الذى رثاه ميجيل رثاء اللهفة والأسى .

بدأ ميجيل قرض الشعر ، أو بدأ عهد القرزمة ، يملأ كراسة إثر كراسة حتى ضاق ذرعًا بمكوثه فى القرية ، والمجد الأدبى يغازله فى المدينة كما يغازل كثيرين من أدباء الأقاليم ، وقد عبر عن هذه الحقيقة ميجيل حين كتب إلى الشاعر المعروف خوان رامون خمينث رسالة يقول فيها :

" كتبت أطنانًا من الشعر ، وهو غير منشور ، فى الأقاليم يقرأون الشعر قليلاً ، والذين يقرأونه لا يفهمونه ، وها أنذا مع أطنان الشعر هذه لا أدرى ماذا أصنع بها ، أحيانًا أحدث نفسى بحرقها فربما كان ذلك أفضل ، أحلم مثل كثيرين بالذهاب إلى مدريد ، تاركًا العنزات ، ومع النقود اليسيرة التى استطاعوا أن يعطونى إياها أستقل القطار إلى العاصمة ، هل يستطيع حضرة خوان رامون المهذب أن يستقبلنى فى بيته وأن يقرأ ما أحمله ؟ " .

ذهب صاحبنا إلى مدريد - فى أواخر سنة ١٩٣١ ، وهى آنئذ عاصمة الجمهوريين - قرويًا أحس بالدوار والانبهار ، يحاول أن يجد أى عمل ليستطيع البقاء فى العاصمة ، يحمل شعره إلى مختلف الصحف والمجلات فلا تعيره انتباهاً ، تبخرت أحلامه ، وتبخرت معها الدراهم اليسيرة ، خائبًا رجع إلى قريته وإلى عزلة حقول أريوله ، وكان يوقع رسائله التى يكتبها إلى أصدقائه أو إلى الصحافة " راعى غنم فى أريوله " ، استطاع بمعاونة بعض الأصدقاء أن ينشر بعض شعره ، وجمعه فى ديوانه الأول : " سمير القمر " مشحون بالمجازات والزخرفة ، وفيه أصداء كثيرة من قراءاته ، ويغيم فيه صوته هو .

" وسمعت به كونتشيتا ألبرنس ابنة وزير العدل فى الحكومة الجمهورية فاستدعته إلى مدريد ، ووضعته تحت حمايتها ، وقدمته إلى حلقة بابلو نيرودا الأدبية ، ومنذ تلك اللحظة أصبح لنيرودا صديقاً حميماً ، وسوف يعاونه ويفتح أمامه الأبواب المغلقة " (راجع ما كتبه د . الطاهر مكى فى كتابه " بابلو نيرودا " القاهرة سنة ١٩٧٤) .

ويظل الشاعر فى مدريد يزاول أعماله الأدبية ، موثقًا صلاته بمشاهير الشعراء آنذاك مع : لوركا ، وأليكساندرى ، ورفاييل ألبرتى ، وألتولاجرى وغيرهم ، ويقص أليكساندرى أملوحة عن ميجيل تذكرك بالعدائين ورعاة الماعز الذين لا تمحو حضارة المدينة بساطتهم الريفية ؛ فيذكر أن الشاعر كان يزوره فى داره فى حى " مترو بوليتانو " بصحبة

نيرودا ولوركا ، وفى بعض الأحايين كانوا يخرجون معًا للتجول فى الحى الجامعى أو فى الحقول المجاورة لمنطقة " مونكولوا " ، وبغتة يختفى ميجيل فيناديه أصدقاؤه " يا ميجيل " ؛ فيجيبهم بضحكته الصافية الجذلة ويتأملهم من أعلى غصن فى الشجرة كان قد صعد إليه .

باغتت الحرب الشاعر وهو فى مدريد ، فانضم إلى الجيش يحارب فى الخنادق ، وينشد بعض قصائده للمقاتلين ، ويكتب فى هذه الفترة ديوانين من خير الدواوين المناضلة " رياح الشعوب " و " الرجل يترقب " فيهما امتزج الحب للوطن إسبانيا ، بالحب لخوسيفينا زوجته وابنه الوحيد .

وتضع الحرب أوزارها فيحكم على ميجيل بالإعدام بسبب نشاطه السياسى خلال الحرب ، لولا تدخل بعض أصدقائه فيتغير إلى الحكم بالسجن ثلاثين سنة ، ويكتب ديوانًا لم ير النور إلا بعد وفاته هو " أغانى ورومانثى فى المغيب " ، لكن فى نهايات نوفمبر ١٩٤١ نظراً لرطوبة السجن والمعاملة الرديئة يقع ميجيل فريسة حمى التيفود ، وقبل أن ينقه منها تمامًا ينشب فى رئتيه السل ، وحاول أصدقاؤه نقله إلى مصحة الدرن ، فتتعثر الإجراءات الإدارية بطيئة بشكل مقصود ، وفى السجن فى ٢٨ من مارس ١٩٤٢ لفظ الشاعر آخر أنفاسه ، ويموت ميجيل عن ٣٢ سنة ميتة أقرب إلى الاغتيال ، ويرقد رفاته فى مقبرة فى " لقنت " عليها لوحة بسيطة : " ميجيل إرناندث ، شاعر - ١٩١٠ - ١٩٤٢ " .

شعر ميجيل إرناندث صورة لهذه الحياة الآسية التى عاشها ، ونحن نعتد كثيراً بهذا المقياس النقدى ، ونراه محكًا لا يخطئ فى تقويم

الشعر ونقده ، وأن كل المناهج النقدية الأخرى إن لم تفض إلى هذا المقياس هى إتخام لبنية العمل الفنى ، وتعليق على حواشيه ، وأن الشاعر الحق هو الذى نعرفه من شعره ، وتحكيم هذا المقياس على ميجيل إرناندث يخرج به صاحبنا بأوفر الأنصباء من الأصالة الفنية ، وقد اطلعنا على مناهج طبقها أصحابها على شعره ، فلم يكن له فيها إلا أوكس الحظوظ ، لا لأنه شاعر قليل الحظ من الأصالة فى الشعور ، والجودة فى التعبير ، بل لأنها طرق فضفاضة ، بعيدة عن الفن ومبدعه .

موضوعات شعر إرناندث هى موضوعات حياته : الحب ، والوطن والموت ، منذ جرفته الحرب حولته إلى مصارع شجاع يغنى حتى لزوجته فى وحشية جميلة ، وفى لفحة الإعصار يغنى للحرية فى قنوط وألم ، مشوبين بالتحدى والأحلام .

سوف تزهر القبلات فوق الوسائد

وحول الأجساد تفوح الملاءة ، برائحة اللبلاب الليلى الفاغم

سوف تكون المخالب وهنى فدعونى والأمل .

ويقول فى قصيدة أخرى بعنوان " ظل باق " :

أنا نافذة مفتوحة تتسمع إلى أين تمضى

الحياة المعتمة

بيد أنه يوجد شعاع من الشمس

يتخلل الصراع

ويدع الظلال - دائماً - مهزومة .

وينبغى أن يكون واضحًا أن خفاف الشعراء يتسرب من أيديهم الخيط الفنى حين يعالجون قصائد الحرب والنضال ؛ فيقعون فى ركاكات الخطابة والمباشرة ، والانفعال الفج الساذج الذى يخاطب الجماهير آذانهم ولا يتسلل إلى قلوبهم ، بيد أن صاحبنا كان على وعى يقظ فلم يهو إلى هذه الوهدة ، التى تصرع الفن ، وتجعله ابن ساعته ، بل عرف كيف يمزج بين عناصر الفن ، وقد وظَّف كل عناصره فى اقتدار صادق يذكر له بالثناء والإعجاب .

الجـــريح

(١)

إلى حائط مستشفى الدم .
عبر ساحات الوغى يتناثر الجرحى
وفي هاته الساحة الممتدة حيث الأجساد المحاربة
يطّرد حقل حنطة ذو شآبيب حارة
في تدفق مبحوح .
ينهمر الدم دائماً فاغراً فاه تجاه السماء
وتطن الجراح كطنين القواقع
حين يكون فيها خفة الطيران
فيحرك الأجنحة .
يفوح الدم برائحة البحر .
للدم طعم البحر ، ومذاق الحان
حانة البحر ، حانة النبيذ القرقف

يتفجر هنالك حيث ينغمر الجريح المختلج ،
وحيث يزهر ، وحيث يكون مطروحًا .
انظر إليَّ ، فإني جريح : أفتقر إلى الحياة أكثر
فإن الحياة التي لدى لا تكفى لتحقيق الغرض الضخم
للدم الذى أود أن أفقده عبر الجراح ،
خبرونى : من الذى لم يكن جريحًا ؟
فإن حياتى شباب سعيد
آه من الذى ليس جريحًا ، ولم يشعر إطلاقًا
بجراح من الحياة ، بل من حياة راضية
لم يكن جريحًا فى غبطة .
وحتى يمضى مغتبطًا إلى المشافى
التى تتحول إلى بساتين من جراح منكوءة
من زنابق ناضرة تجاه قاعات الجراحة
ذات الأبواب الدامية .

(٢)

من أجل الحرية أنزف دمًا ،
أناضل ، أظل أحيا

كشجرة من لحم
أسخو فى كرم آسر
بعينى ويدى للجراحين
من أجل الحرية
من أجل الحرية
أشعر بأفئدة
عدد الرمل فى ضلوعى
تلقى بالزبد فى عروقى
ألج فى المستشفيات
ألج فى حشايا ضماد القطن
وكأنى أتسرب فى زهر السوسن
من أجل الحرية
أنطلق كالقذيفة
بعيداً عن من مرغوا تمثالها فى الحمأ
أنطلق بنفسى طفراً ، بعيداً
حتى عن قدمى ، وذراعى ، عن دارى
بعيداً عن كل الأشياء ؛
لأنه حين يبزغ كهفان أجوفان

ترسى الحرية حجرين لأمل قادم
وتنمي سواعد جديدة وسيقانًا جديدة
فى اللحم الممزق
تتبرعم اختلاجات العصارة ، ولا يدركها الخريف
تتبرعم بقايا من جسدى أفقدها مع كل جرح
لأنه تنبت لى براعم مثل الشجرة المقطوعة
فإنى مازلت أحيا .

ولدت مثل الثور للحداد

ولدت مثل الثور للحداد والألم
وسموا جنبى مثل الثور
بمقامع من حديد
لأنى فحل بائن الفحولة .
وكالثور ليس يبالى
فإن فؤادى تجاوز حده
فى هيامه بشفاه القبلة المحبوبة
مثل الثور أدافع عن حبك
مثل الثور أنمو على العقاب
ولسانى مخضل فى سويداء قلبى
أحمل فى عنقى ريحًا مزمجرة
أتابعك ، وأتقيلك مثل الثور
وأنت تمزقين هواى بشبا السيف
فأغدو مثل الثور ، مثل الثور
خائبًا .

أغنية الزوج الجندى

عمرت باطنك بالحب والغراس

ومددت صدى الدم الذى أرجعه

وأنتظره وأنا على حافة الأخدود كانتظار المحراث

وقد وصلت حتى الأعماق .

يا سمراء البروج الباذخة

والضياء الشامخ ، والعيون الأبية

يا رفيقة إهابى ، والنهلة الراوية فى حياتى

ينمو نهداك الطائشان ، يتوثبان تجاهى

توثب ظبية حامل .

يُخيل لى أنك زجاج رقيق

أجفل أن تتحطمى إزاء أهون عثرة

حين أشد عروقك بأديمى العسكرى .

يا مرآة بدنى ، وقوادم أجنحتى

أمنحك حياة من الموت الذى يمنحونه لى
ولكنى لا أتجرعه
أحبك يا زوجتى ، أحبك يا زوجتى
والرماح نواهل منى ، وبيض الهند تتشهى دمى .
أحبك ، وأنا فوق التوابيت الضارية فى ترصد
وفوق الموتى دون إسعاف ودون لحود
لوددت أن أقبلك ، يا زوجتى - وصدرك معانقى
حتى فى مثار النقع .
وحين تسنحين فى جبهتى ، التى لا تبرد طيفك ولا تهدئه
تدنين منى - فى ساحة البأس -
مثل فم هائل ، ذى مخالب طاوية
اكتبى إلىَّ وأنا فى حومة الوغى
واشعرى بى وأنا فى الخنادق
أذكر اسمك هنا ، وأركزه بالبندقية
وأذب عن أحشائك الطاوية وهى تنتظرنى
وأذب عن ولدك .
سيولد طفلنا قابضاً يديه

متدثراً بضجيج الانتصار ، وطنين القياثر
وسوف أنزع لدى بابك حياتى جندياً
وألقاك من البأس أعزل .
من الحتم أن نُقتل لكى تستمر الحياة
سوف أفيء ذات يوم إلى شعرك الفينان القصى
وسوف أهجع تحت ملاءة الصفاء والجلبة
التى طرزتها يداك
تندفع ساقاك الثائرتان تجاه المخاض
ونغرك الثائر بشفتيه الجامحتين
أمام عزلتى بين المفرقعات والخنادق
تطفرين فى مهيع القبلات الحرة .
بيد أن الولد سيكون السلام الذى أعمل على تحقيقه
وفى النهاية ، فى قعر محيط من العظام النخرة
سيغرق قلبانا .
ليبقى امرأة ورجل يفنيان فى القبلات .

أغنيات البصلة

مهداة إلى ولده ، حين تلقى رسالة من زوجته تقول له فيها :
إنها لا تجد ما تطعم سوى الخبز والبصل *

البصلة جليد
موصد فقير
جليد أيامك ولياليى
طوى وبصلة
جليد أسحم ، وجليد هائل مدور
كان طفلى
على مهاد الطوى
يرتضع دم البصلة
بيد أن دمك موشع بالسكر
والبصلة والجوع
وامرأة سمراء

تسامر القمر

تنسكب على المهاد

شعاعًا فشعاعًا

اضحك يا ولدى

سأحضر لك القمر

لو كان من الحتم ذلك

اضحكِ كثيراً

يا قبرة دارى

فإن ضحكة عينيك ضياء الكون

أضحك ملء أشداقك

فإن روحى حين تسمعك

ترفرف فى الأثير .

إن ضحكتك تحطم أصفادى

تنبت لى أجنحة

تؤنس وحشتى

تطلقنى من سجنى

إن ضحكتك ثغر يرفرف

وقلب يبرق بين شفتيك

ضحكتك حسام بتار
يهزم هذى القبرة وتلك الأزهار
ضحكتك تنافس ضوء الشمس .
هى مستقبل حبى وعظامى
هى جسمى المرتعش
وجفنى الخافق
حين يباغته شىء ما
وهى الدنيا تختال بزينتها
كم من عصفور يطفر من جسدك وثابا !!" (١)
" لقد صحوت من طفولتى
فلتبق أنت غافيًا
ومغرقًا فى الابتسام دائمًا
فإن ثغرى ما درى غير مذاق الحزن
فلتبق أنت فى المهاد ذائداً عن هذه الضحكة
ريشة فريشة ،
محلقًا فى الأفق اللاحب والمدى الفسيح
فإن لحمك السماء
جديدة الميلاد ياليت فى ذرعى أن أؤوب نحو منبع الطريق

نحو طريقك يا بنى !!
حين تتم أشهراً ثمانية
فسوف تغدو ضاحكًا بخمس أزهار .
خمسة أظفار صغار وضوارى
وخمس أسنان ، خمس من الياسمين النادى * (٢)
سوف تغزو تخوم القبل غداً
حين تشعر فى جذور أسنانك بشبا السيف
حين تشعر بلهب النار
سارياً تحت الأسنان ، باحثًا عن المدار
طر يا بنى بين قمرى النهدين
فإنه حزين من البصلة
وأنت مغتبط
فلا تستسلم
وغض الطرف عما يحدث
وعما يجرى

* * *

(١) ، (٢) جاءت هاتان المقطوعتان من تفعيلة المتدارك والرجز على التوالى . (المترجم)

أغنية أخيرة

مدهونة دارى
ليست خاوية
مدهونة بلون العواطف
والكوارث الضخام
سوف تؤوب من النشيج
حيث حملوها بخوانها الخالى
وسريرها المتهاوى
وسوف تزهر القبل
فوق الوسائد .
وحول الأجساد
ستفوح الملاءة برائحة اللبلاب الليلى الفاغم
وخلف النافذة
يخمد الحقد
وتغدو المخالب وهنى
فدعونى والأمل .

نماذج معاصرة من شعر المرأة فى إسبانيا

تيريسا سوبيرت

" حين أقول الصمت "

حين أقول صمتًا فحسب
فإنما أعنى صمتًا ،
بيد أنه صمت نقى
حنون ، هادئ ، وانٍ
أعنى صمت الصيادين بالشص
صمت دوارة الهواء فى الأبراج
لا أود صمت الطفيليين
ولا صمت الطلول
ولا صمت المرايا
ولا صمت الساعات بدون زمن
حين أقول صمتًا ، فليس ثمة خفايا
ولا صحارى
حين أقول صمتًا
فيكفى أن يكون صمت الطحلب .

" الموعد الأخير "

كونشاميندث كويستا

لم يكن ثمة شمس ، ولا قمر ، ولا ليل ، ولا نهار

كان يسبح فى الزمن صمت بارد

عيناك ما كانتا عينيك

أما عيناى فلست أدرى لمن كانتا

ولكى لايرمق أحدنا الآخر ، كنا نتطلع إلى سماء ليس فيها نجوم ..

ذراعاك ما كانتا ذراعيك

أما ذراعاى فلست أدرى لمن كانتا

لكيلا نعتنق

ظللنا جامدين

خانتنا قوانا

إذ كان الموعد الأخير

وما لمحنا دموعنا .

١ - لست شيئًا

أمبرو جاستون

أدرى ، ها أنا أدرى ، أننى لست شيئًا

أيتها الحياة ، الحياة الحلوة ، الجميلة

لست شيئًا ، لست شيئًا

لست سكرتيرة ..

ولست فلاحة ساذجة

ولست أعرف ركوب الخيل

ولست مضيفة

إذن ، أيتها الحياة من أنا ؟

لست شيئًا ، لست شيئًا

ولن أفرح أبدًا

إذا أنت لم ترمقينى

فلن أصبح لاهثة

إذا أنت لم ترمقينى

فلن أثب ، ولن أسبح

إذا أنت لم ترمقينى

فلن ...

إذن أيتها الحياة من أنا ؟ لست شيئاً سوى الألم

إذا أنت لم ترمقينى .

٢ - خطيبى بملابسه البيضاء

يقبل خطيبى بملابسه البيضاء
بيد أن بياضها يخالف كل البياض
لا تشبه ملابس المصطافين
ولا ملابس هؤلاء الأطفال
يقبل خطيبى بملابسه البيضاء فى بساطة
فى بياض له نصاعة الذهب ، وشهر مايو
يا لك من أحمق ، أيها الطائر
الطائر الأسود ، المتعجل ، الحار ! !
انظر إلى خطيبى بملابسه البيضاء
ألا يبدو واضحًا أننى شديدة البهجة ! أأشرح هذا ؟
يا أصدقائى : الأشجار ، والمنابع ، والغمائم
والنسائم ، إننى مبتهجة ، سعيدة ، أكاد أجن
هذا الفتى القادم بغتة ، بملابسه البيضاء
إنه خطيبى ، خطيبى الأشقر ، المزهر .

* * *

" الكلمة "

ماريا إلبيره لاكاثى

أريدك بسيطة ، وربما عارية

أحيانًا .

تنبعين منى فى غلالة رقيقة (بدون إرادتى تزدهر اللغة من كائنات أخرى)

إننى أعريك حبًا

تبقين مثل لحمى

مثل فؤادى ، ونبضاته

وكثيراً

مثل الصغار

أمام واجهة حانوت اللعب

ألصق الوجه بالواجهات المتلألئة

حيث تباع الكلمات الجميلة

التى أعجبت بها

تصيب مواقعها بالنسبة للبعض ، إذا وضعتها . . .
أوزعها فى الحال
لأنها بالنسبة لى لا تستقر
سوف أمضى من جديد ، آخذ حزمة من الكلمات
بين العشب المريع ، وتحت السماء .

* * *

١ - سونيته للحب

أديلايدا لاس سانتاس لوريرو

كل شيء له اليوم طعم الربيع
قلبى مثل شقائق النعمان .
إننى اليوم مع الحب عذراء مسافرة
مثل الموجة فى طريقها إلى ساحل البحر
إننى اليوم مع الحب عذراء مسافرة
فليباركنى الله !!
ترجع قوقعتى أغانى الحب
فتضيع معى فى صدى الانتظار .
يزهو بى الحب حينما أكون نائمة
فى بحر الحب أرتطم بالساحل
يتجدد لى الحب حين أستقظ
فى سبيل الله ، السبيل الشديدة النضارة
تمضى ظلال حبى متجسدة على الدوام
كم زنابق حب فى بستانى !

* * *

٢ - قربـــان

أيها الرجل المجهول الذى يمضى فى الدروب
أتكون أنت بذرة هذا الحب الذى يساورنى ؟
أيها المجهول الذى لا يدرى بوجودى
إننى أريد فقط عصارتك ، ولا يعنينى اسمك
أحتاج أن أقدم نفسى يوما بعد يوم
وأن أتجدد فى أشجار متعددة الجذور .
أحتاج أن أكون ملكًا ، وشيطانًا ، وإنسانة
ليس فى ذرعى أن أظل دائمًا خامدة فى الساعة ذاتها
مع بسمة خالدة لحب لا ينمو
أيها الرجل المجهول ، لن أطلب منك شيئًا
سوى أن تكون محبًا لى فى يوم واحد فحسب
ثم حين تمضى ، تحمل معك ذكرى
ذكرى أنك منحتنى عصارتك ، ونقعت غليلى .

قصائد من الشاعرة الإسبانية

خوسيفينا دى لا تورى

تقديم بقلمها :

ولدت فى جزيرة جـران كنـاريا ، نظمـت أول قـصيـدة وعمـرى سبع سنوات ، ومنذ ذلك الحين ، وأنا أزاول النظم ، ظللت طوال حـياتى مشغوفة بالموسيقى ، ومنذ صغرى وأنا أغنى ، ودرست فى فن الموسيقى آلات : " الفيولين ، والبيانو ، والقيثـارة " بالآلة الأولـى والثانيـة عزفـت فى الأوركسترا كونشـيرتو : Saint - Saens فى لاس بالماس ، غنيـت فى كونشيرتات كثيرة ، وفى حفلات خيرية فى إقيلمى ، أذكر إحداها هى حفلة أقيمت بمناسبة ذكرى بيريث جالدوس على مسرح سان كينتين ، وقمـت فيهـا بـدور " روسـاريو " سنة ١٩٣٢ ، وبمـدريـد اشتـركـت فى أمسـيتـين شـعريتين : الأولى فى نادى ليسيوم النسائى ، والثانية فى مدينة الطلبة ، وكان لدى فى بيتى عبر ثلاث سنوات مسرح غرفة : مسرحى الصغير ، كان يديره أخى كلاوديو ، وافتتح بمسرحية المسافر ، جاءت بعـدها مسـرحية نحـو النجـوم لدى أندرييف ، ثم ها قد وصلت إلى الوحـدة ، هى لكلاوديو ، وقطالينا الكبرى لبرنارد شـو ، وفرسـان نحو البحر لسين Singe ، فى هذا المسرح قمت بمهمة المنشد .

زرت مـــدريد لأول مـــرة ، كنت لا أزال طفلة سنة ١٩٢٤ ، وفى السنوات التالية قمت بزيارات متعددة لمدريد ، ولم أعد إليها إلا فى سنة ١٩٢٧ ، قمت آنذاك بزيارتى الأولى إلى باريس ، فى أواخر ذلك العام نشرت ديوانى الأول " قصائد وصور " ، وكما عاوننى كلاوديو فى أعمالى المسرحية الأولى ، مدَّ يده إلىَّ أيضًا فى مسيرتى الأدبية ، نشرت ديوانى الثانى " قصائد الجزيرة " ١٩٣٠ ، ولدى ثالث لم ينشر بعد ، كما نشرت فى الصحف والمجلات الآتية :

Gaceta Literaria, Azor, Verso y Prosa, Alfar

أرسم أحيانًا ، وألعب التنس ، وتروق لى كثيرًا قيادة سيارتى ، لكن السباحة رياضتى المفضلة ، وظللت طوال عامين رئيسة نادى السباحة فى إقليمى ، من هواياتى أيضًا :

السينما والرقص .

تقول عن شعرها :

شعرى ممتزج تمامًا بغوامض الأسرار ، ولكون الأسرار مجهولة لم أتوقف أبدًا عن التفكير فيما كانته ، إلا أنى أشعر بوجودها فقط " J. deL a.T " .

١ - الماء الصافى فى البحيرة

كان مرآة الحور الأسود

بساطًا أخضر للسماء

ممزوجًا بظلال الأشجار

آه لو كنت أستطيع الولوج

بقدمى عاريتين ،

وأن أكون الريح التى تزرد الماء

وأن أحرك الحور الأسود

....

٢ - كل أشواقى رصدتها

لانتظار الغد

كيف يقبل ، موشى بزهرة الرتم البيضاء

أو بزهرة موشاة بالحداد ؟

هل تقبل بأحداق مخمرة

أو بنظرة شاحبة ؟

هل لك صوت ، هل لك بسمة ،

أم أنك لا تقدم إلىَّ شيئًا ؟

أيها الغد ، يا أفقًا غارقًا فى الضباب

يا دفة سفينى الأمين :

إنك منذ أمد ، وأنت تقبل إلىَّ

وأشرعتك منشورة

....

٣ - لقد قلت لك تلك الكلمة

لأننى شعرت بها غير متوقعة فى التو

وقد لململتها صحيحة فى الشفاه

ارتبتُ لحظة فى نظرتك

بيد أن تلك الكلمة

- يا لها لعبة طامحة ، وقد تركتنى فى لحظات عنيدة ·

كانت هنا بين الأسنان

واضحة ، قوية ، طليقة من الحنجرة

وأنت ظللت ذاهلاً

تتأملها .

....

٤ - الأصيل نائم

يستلقى على أوراق الأشجار

تغمض عيونه

من النظر إلى الشارع

الأصيل نائم

حيث يهززه الشجر مستلقيًا

تحمله الرياح

تهزز غفوته فى الهواء

....

٥ - كم أود أن أقيد - ما بين كفى - برتقالة الأصيل

طازجة ، دون قشرتها الصفراء ، اللامعة

منزوعة من القمر ، تمشطها السكين

يا له من مذاق الفاكهة الباكورة

الآتى من حفاف البحر ، والرمل ، والهواء ،

يا له من شعور ، أن ينشطر الأصيل شطرين

حين يطل الليل من شرفته النحاسية

يلتهم البرتقالة

آه ، أيتها الطفلة الكئيبة !!

....

٦ - سنواتى المرافقة لى ، سنواتى أنا ، الملتبسة ،

كالأطفال ساعة الخروج من المدرسة

فى فوضى ، وبعثرة . .

سنوات مغامرة ! !

هل هى اثنتان أو ثلاث فى الوقت ذاته ؟

يقين غريب لشوق دائم

خفق قلبى ثلاثًا وعشرين مرة خفقه المبين

قلبى ، صديق سنواتى

أستاذى الطيب الصغير

واليوم لست أدرى ماذا حدث لى ، ولا ما لدىّ

هل يا صديقى هذه سنة زائدة ،

أو سنة مخترمة ؟

....

٧ - كنت تحمل فى أقدامك رمالاً بيضاء

من شاطىء مجهول

لذا حين وصلت إلىَّ لم أحس بوقع خطاك

كنت تحمل فى صوتك العريان

لحظة انتظار

لذا حين تحدثت إلىَّ

لم أستطع أن أعرف مدى صوتك

كنت تحمل فى يديك المبسوطتين

زبداً أبيض من ذلك البحر ؛

لذا لم أتمكن من الاحتفاظ

بآثار قدومك الميمون

كل هذا ، وأنت جئت باحثاً عنى ،

ولكنى لم أستطع استكشافك

رمال بيضاء

لحظة انتظار زبد أبيض . . . !!

نوم قلق فى الساحل الأخضر

تجاعيد أسئلة . .

. ...

٨ - لست أدرى ماذا عندى

هل هى دورات مجنونة لعاصفة معتمة ،

أو راحة بطيئة لمياه راكدة ؟

لكن كل شيء يدور نحو ظلى

ويهز غرب أفكارى

هل البحر ، والشمس ، والرمل ذاته

والشراع الأبيض المتجه إلى الشاطئ المفتوح ؟

هل كل هذا يطفو فى أعماق دمى ،

ويغطى ذراعى بصورة عاكسة فظة . . . ؟

لست أدرى ماذا حدث لى

أشعر أن ساعة ضياء بانتظارى

ذبذبة من المجهول غير متوقعة

فى وجنتى المجنونتين ، ورفيقاتى الحكيمات

أشعر بأثر الخفقة الأولى

آه ، أيتها البسمات الجذلى لكل الأطفال

والأصوات المنسية لكل العجائز

التفى حولى الآن

واطلبى منى النصيحة .

....

٩ - دورة هذا الضياء

بدون صوت مثل المساء

ماء كدرته الريح

خضراء مثل الفضاء الوحيد

ابحث عنى فى الشاطئ

فأنا ضائعة فى الجحيم السحيق

لن تجدنى أبداً

لن تعثر علىّ أصواتك

ولا نواياك المستسلمة

دورات الريح المريرة

الظلال الحامزة لما هو يقينى

فأنا وحيدة فى رأس الزاوية نفسها

نور الدورة الضائع ، نور الفجر

ابدأ بأحداق الكريستال إشارات البحر الضوئية

ابحث عنى فى الفضاء الممزق

بين أخاديد القمر

لن يعثر علىّ صوتك ، ولا عنادك العسوف التائه ؛

لأنى ضائعة فى الشاطئ المرير .

والشعراء الإسبان أيضًا يقفون على الأطلال

ليس للشعر موضوع يقف عنده ، وينحصر فيه ، وإلا حصرنا الحياة ذاتها فى هذا النطاق فلا تخرج عنه ولا تتعداه ؛ لأن الشعر صورة الحياة يعبر عنها فى ضروبها المختلفة وأشكالها المتباينة .

والوقوف بالطلول أحد الموضوعات الأثيرة فى الشعر العربى ؛ لأن الطلول كانت تلابس البدوى فى ظعنه واستقراره ، ولذا لم يكن أمرًا إدًا أن تجيش بها نفسه جيشانًا عارمًا فيفرد لها الأبيات الطوال ، وتأتى طواعية فى مستهل قصيدته " مقدمة طللية " يبكى فيها الرسوم الدواثر فى الطبيعة أمامه والشاخصة فى نفسه ذكرى آسية ، لم يكن الشاعر العربى - أوانئذ - يتقيل نموذجًا مرسومًا ، إنما كان شيئًا يجيش به صدره ، فيقذفه على لسانه ، لكن حين فسدت الملكات ، وغلبت الصنعة الطبع ، صار الوقوف على الطلول " طللاً مسجلاً " احتذاء للأولين ، واقتياسًا عليهم ، حتى آض الشاعر الحضرى يبكى الأطلال الدوارس وهو لم يرها ، وبات الأمر لدى صغار النقاد العرب واجبًا مفروضًا أن تستهل القصيدة بالكباء الطللى ، ثم بوصف المحبوبة متخلصًا منه إلى غرض القصيدة الأصلى .

ثار أبو نواس - بشعوبيته - على الوقوف بالطلول مستبدلاً به وصف الخمر منددًا بالعرب ، مزريًا عليهم ، ساخرًا بهم .

قل لمن يبكى على رسم درس   واقفًا ماضر لو كان جلس

والحق أن أبا نواس لم يصنع شيئًا بتمرده ذاك ، جل أمره أنه استبدل شيئًا بشىء آخر ، فهو تقليد فى كراهية التقليد .

ولعل " سينية " البحترى فى إيوان كسرى نمط نادر فى الشعر العربى ، صدق لهجة ومشاعر ، ونقاء فكر وتعبير ، يقل رصيفها فيما نظمه شعراؤنا إن ابداعًا وإن تقليدًا ؛ لأن البحترى لابس الموضوع فيما هو إنسانى ؛ فهو عربى الوجه واليد واللسان ، والإيوان كسروى ، لكن الشاعر استطاع أن يريق على الموضوع وهجًا إنسانيًا خالدًا ، يقول :

ذاك عندى ، وليست الدار دارى

باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى

وللأستاذ العقاد - رحمة الله عليه - قصيدة جيدة عن أنس الوجود خلع فيها على المحسوس ما هو معنى باق ، وأسلست له فى النظم طريقة لا تحس فيها نبوًا ولا استكراهًا ، ولم يقصر فيها ثوب التعبير عن احتواء جسد المضمون ، يتحدث العقاد ، موجها الكلام إلى " أوزيريس " وصوامعه :

فيا وجه أوزيرس هلا أضأتها

وأنت تضىء السهل والجبل الوعرا

ورُبَّ إلـه بالضـياء محجـب

وشـمس سـماء عين ناظـرها حسـرى

وقد عرف الشعـر الأندلسى موضـوعًا أثيرًا وحـزينًا ، هـو الوقـوف على المدن والممالك المسلوبة ، نعم سبق المشـرقيـون إخوانهم الأندلسيين فى هذا المضمار ، لكنه سبق البداية فحسب ؛ لأن هذا الموضوع أندلسى خالص ، أبدع فيه أهل الأندلس وفاقوا المشـارقة ، ربما لظاهرة المدن الضـائعة التى تفرد بهـا الأندلس ، وكثـرة الحزن تعلم المرء البكاء كما يقـولون ، ولدراسـة هذه الظاهـرة يمكن الرجـوع إلى مـا كـتـبـه صـديقى العلامة الدكتور الطاهر مكى فى كتابه " دراسات أندلسية " .

ويفيض المؤرخون العرب والأعاجم فى الحديث عن مدينة الزهراء ، وبنائهـا ، وعمـارتهـا ، وكـان مبلغ قـول أحـد المؤرخين العـجم عنها إنـها "فرساى" المسلمين ، بناهـا عبد الرحمن الناصـر تخليداً لجاريته الزهراء فى سفح جبل العـروس بينهـا وبين قـرطبة ثلاثة أميال تقـريبًا ، وجعلها المقر الملكى ومقر الحـاشية وأرباب الدولة ، واستمر العمل فيها من عام خمـسة وعـشرين وثلاثمـئة إلى آخر دولة الناصـر وابنـه الحكـم ، وذلك نحـواً من أربعين سنة ، بيد أن هذه المدينة الجميلة لم تزدهر سوى ردح يسـيـر من الزمــن ، فـقـد زاحـمـتـهـا مـدينــة " الزهـراء " التى بنـاهـا المنصور بن أبى عامر .

أتت على المدينة حوادث الزمن ، فانطمرت تحت الأرض إلى أن "بدأ الحفر للكشف عنها فى القرن الماضى أو على التحديد عام ١٨٥٤ . وفى عام ١٩١٠ بدأت الدولة الإسبانية الحفريات من جديد على نحو منتظم حتى يومنا .. كان ريكاردو بلاثكيث بوسكو أول من اضطلع بهذه الحفريات عام ١٩١٠ ، واكتشف فى هذه الحفريات الأولى قصر الخلافة والمجلس الغربى " .

وبعد أن توقفت الأعمال بسبب الحرب الأهلية عادت من جديد عام ١٩٤٤ ، وحققت نتائج باهرة فى زمن محدود ؛ إذ اكتشفت قاعة عبد الرحمن الناصر إلى جانب مبانٍ ملحقة .

وفى عام ١٩٦٤ تلقت حفائر مدينة الزهراء دفعة قوية من الدولة ، وفى هذا العام نفسه تم تنظيف مسجد الزهراء تمامًا ونقوشه الأدبية معروفة جيدًا ، وأوردها عدد من المؤرخين ، وكان يشرف على أعمال الحفر المهندس هرناندث خمينث ، كما أن المهندس باسيليو بابون ملدونادو قام بالدراسات المعمارية (أفدت من مقال رفاييل كاستيخون عن حفائر مدينة الزهراء ، وترجمه صديقي وأستاذى الدكتور الطاهر مكى) .

القصائد التى تأتى مترجمة بعد هذه الكلمة هى لثلاثة من الشعراء ، يلقب أولهم بشاعر مدينة الزهراء ؛ لأنه قرطبى أولاً ، وخصص ثانيًا ديوانًا كاملاً عنوانه " مراثى مدينة الزهراء " ويدعى ريكاردو مولينا ، وترجمت له قصائد " شاعر عربى ، طلول ، الصيف ، أغنية أندلسية ، الساقى " ، وترجمت للشاعرة خوانا كاسترو قصيدة " الزهراء من عند

الزهراء " ، وثالثهم ترجمت له قصيدة « الزهراء وردة » وهى للشاعر سباستيان كويباس نابارو . والقصائد كلها من كتاب خصصت صفحاته كلها للحديث عن مدينة الزهراء أصدرته مديرية الثقافة فى مدينة قرطبة وعنوان الكتاب " حنين وحضور مدينة الزهراء " . وأرى فى القصائد هذه نفسًا أندلسيًا خلفه أسلافنا الأندلسيون فى أصحاب هذه القصائد وفى غيرهم ، وقد أتيح لهم أن يقرأوا الشعر العربى مترجمًا إلى الإسبانية فى مطالع هذا القرن ، قام بترجمته بعض المستشرقين الإسبان ، وإن كان من الملاحظ أن فيه أيضًا نسيجًا سيرياليًا غامضًا ، يتمثل فى تركيب الصور والعبارات .

* * *

١ - شاعر عربى

الرجال الذين يتغنون

بالياسمين والقمر

أورثونى أساهم

وهواهم ، وأوراهم ، ونارهم

الغرام المضنى

للشفاة المتأججة

والعبودية

للجمال الذائب الرقة

وحزن

الرغبة الخالدة

التى لا يستمر جوهر لذتها

سوى لحظة واحدة .

* * *

٢ - طلول

عظيم مصنع المرمر

القصر النبيل بجدرانه ذات الشرفات

الأبواب المعدنية ، من الأرز والبرونز

بيد أن الأعظم من العظمة ذاتها

هو رغبة القدرة التى تلهب

بأجيجها اللاعج الضلوع العزلاء .

جميلة القاعة المأنوسة المطرزة

من أجل الحب ،

النبع الصافى الموسيقى الذى ينتحب ، ويغنى فى زاوية خفية

بيد أن الأجمل من الجمال ذاته

هو ذلك الشوق المر الذى يستيقظ

ماذا بقى من المئذنة ؟

ماذا بقى من القصر ؟

ماذا بقى من السلطان ؟

بقى رنين الحجارة ،

بقى اسم شريد ، زائف ،

ريح حزينة .

تهوى الأنجم من سمائها الرائعة .

واحدة واحدة ، رماداً ،

آض الحب ، والسلطان ، والإرادة

رماداً ، رماداً تذروه الرياح . . .

* * *

٣ - الساقى

ظمأى ، ونعشق الظمأ
ضوء عميق يهدهد أعماقنا
ويعانى فوق شفاهنا
باطل أن نغنيها ، الأهم فحسب
أن نشعر بها ،
أن نهواها إذا عانت أو غنت حزينة ووحيدة
قل لى : لماذا تقدم لنا
الأقمار مرة والكئوس مرة أخرى
تحوم حول رغباتها دائراً
فى لوذعية ؟
آه !! أيها الساقى ،
شفاهك الوردية - فى ظلال الشوق
الذى يؤرقنا - تخجل الورد .
من الذى فى وسعه أن يطفئ الظمأ الذى يقتلنا ،
لو كان القمر وفيًا لذاته ،
قمراً ، وخمراً ، وثغراً ؟

٤ - أغنية اندلسية

سحب ، وطيور ، ونجوم ،
تمضى .. وأبقى أنا
قريبًا ، وقريبًا جداً ،
فوق العمود المهشم ، وعلى حاجز الشرفة المهشمة
ما زال الحب يغنى
أتسمع شدو العصفور
الذى بقى معى ،
هنا ، وقت الأصيل ؟
تظل السماء متشحةً بأغصان المشاعر كلها
سلام البقاء
حالمة الروح تكاد تضرب فى الأسل
قريبًا من أبريل ، قريبًا منى
قريبًا ، وقريبًا جداً ، هنا .

* * *

٥ - الصيف

كان يجثم الصيف السعيد البطيء
في البهو بين الأزاهر
بينما تغفو الروح في النسيان اللذيذ
مُقعِيًا في ركن قديم ، في مملكة وادعة .
الأصيل المتوهج في أواخر أغسطس
كان يسترخي بين الأزاهر .
بينما كانت يد سبطة تهدهد في الأحلام
قيثارة المساء الخفية .
اللحن الخفي لهذه اللحظة الساجية
كان ينثر سلامًا رطبًا ،
وحياة القمر الغضة
والنسيم فوق البهو في الظلال .

* * *

٦ - الزهراء من عند الزهراء

(أ) الصباح :

يتقاطر الطل من النرجس

علامة النصر

يتباعد جناح الضباب

مثل الغراب

لا مكان للنحيب حيث الأزاهر

والزنابق والرتم يبزغ منها معًا

براعم حياتها الفانية ،

ونحن معها الفانون الباقون ،

مع الضوء المبعوث من الفناء ،

فإن مدينة لا تموت وإن دمروها .

(ب) الأصيل :

جبل العروس مليء بالزهر تحت جذوة الشمس
ولدى قدميه تشهد الطلول بالعظمة
وباسم الله الرحمن الرحيم
يسجع الحمام .
الذى مر فحسب هو الزمن ، جواده المخادع .
وأسراب النحل - فى يونيو القائظ -
فى جيئة وذهوب من الأزاهر إلى الخلية
الأصيل مثل الجذوة ، وكذلك شقائق النعمان ،
والعبق مثل العقد يطوق لهب الرياح الباذخ
لقد مر الزمن فحسب .
وبقيت الذكرى ،
ويجثم المجد فى التراب الحريرى ،
وتنفث كف الريح الحمى فى أوراق اللوز
الصغيرة الواهنة ، حيث تكون المياه
مثل أفعى حلوة ، رطبة الأنياب .
لا يمر سوى الزمن
لقد مر الزمن فحسب .

إن الشاعر يعيد برؤيته صياغة العالم ، حجراً ، حجراً ، كلمة تحت نار الأيام ، ونظراته السعيدة تصلح خلل الأقواس ، ولغته هى الفجر .

لقد مر الزمن فحسب .

(ج) الليل :

من الزهراء أتذكرك بشغف ،
وأنت تملئين الليل ، فتشرب عيونى :
هاته الكأس من النبيذ التى تطفح زهراً
مثل كتفيك فتسحر عينى ، تسحرنى كتفاك ، وضفيرتاك
وأنت لا تدرين - يا ربتى - حتى هذا .
إنك تتوهجين مثل النجم ، بل أشد وهجاً منه
وأنت لا تدرين - يا ربتى - الآن ، حين يكون الليل النطفة
الباردة الكبرى للغمائم العذبة
التى أشربها بخلايا عيونى الظامئة .
من الزهراء أتذكرك بشغف ،
وظمأ الملح يمزق حنجرتى ، فأملؤها بك
وبذكراك ، وبضفيرتيك الذهبيتين ،

وبكتفيك من الثرى العبق .

يا ربتى التى لاتقبل إلا لماماً ، تعرفين مصاحبة المجد .

ورؤيتك هنا :

هنا حيث الطلول تخلد النصر فوق الضباب

العسلى الأسحم ، على ظلال الزمان .

* * *

٧ - الزهــــراء الزهـــرة

(١)

لقد ماتت الأزاهير ، والياسمين ، والزنابق ، والسرو .

وذبلت الزهرة

وعبد الرحمن عبر الحبق يبحث فى الظلال

عن الياقوت البارد فى عمامته .

ورياح القرون الطويلة غيضت الغدران فى القاعة المذهبة . ونبات الجهنمية يناوش القبيلة فى رقصته الزئبقية ، وفحول الجياد العربية تحتضر أعرافًا وشقائق نعمان ، وفضل المغنية تنهض مثل الشحرور الغض فوق بساط اللهب ، والمباخر تتوهج ، والحكم يحلم بالكتب وبقناديل البرونز .

والمدينة الوردة تتبختر فوق سوريا وبيزنطة وبغداد ، وفارس والمدينة الدفلى ، واللبلاب وزهرة العسل تزهر زهرة من الجيد إلى الثغر ،

والباز يلمحك منعطفة بالعوسج والكروم

مثل عنقود غنائى بين كهرمان الأرباض المشمس .

وآبنوس جبل العروس حيث تنتظر العروس .

(٢)

الأظافر المفسدة نخلت المرمر

وخمشت الأقواس ، ووشى الدمقس

ولطخت شجر اللوز بالتراب .

حمامة لؤلؤلية تدمى فى الثرى ،

من الأزرق السماوى إلى الوردى

ثمة قطاف من تيجان الأعمدة

واليشب الأخضر والعاج ..

وربوة بيضاء من الكافور تنساب من أشبيلية إلى المغرب من فلورنسا إلى اللوفر .

وزهرة إكليل الجبل تنتثر مثل ماء الإيمان

حينما تهوى الزهراء متناثرة .

(٣)

لا أحد فى ذرعه أن يمحق الربيع

مادامت العصارة هاجعة فى الثلمات

التى يتجدد شباب بذورها .

وفى الجيل الكامل من نبات الغار

برغم النار ، والسيف ، يرضع نبات الشوبان

والعوسج جذوره بين الجير والجص ،

والأعمدة تتنفس بين الحرشف ،

والطلع النباتى يتحول إلى حى دواما

من شجرة تين إلى أخرى ،

ليس فى ذرع العقرب أن تلدغ الأقواس

ولا أن تبدد خزامى الثمار ،

الخراج تحيط بالأسس .

ولا يصل طعام الكسكسى بالعسل والقطلب .

وعقد من السوسن والخرشوف يتدلى

من الزليج والمخدع ،

فى الجو الفخارى تنبت بذرة الخصب الخالدة ،

فإن الزهراء الوردة دائماً مخصبة

* * *

قصائد من قطلونية

١ - شجر الصنوبر فى فورمنتور [١]

م . كوستا اى يوبيرا بونيكا ١٨٥٤
بالمادى ميورقة ١٩٣٢

يعشق قلبى شجراً أقدم من شجر الزيتون
وأقوى من شجر البلوط ، وأشد اخضراراً من شجر البرتقال
تحتفظ أوراقه بالربيع الخالد
ويصارع الرياح التى تجتاح الساحل
مثل عملاق محارب ،
لا يطل بأوراقه على الزهرة العاشقة
ولا تقبل ظلاله مياه النبع
بل مسح الله هامته المقدسة بالعبق
ووهبه قنته الوعرة عرشاً

(١) رابية فى جزيرة ميورقة (المترجم) .

وأعطاه البحر الخضم نبعًا

ومن بعيد ، فوق الموجة يولد النور الإلهى

لا يغنى فوق غصونه الطير الأسير

ويسمع الصياح الهائل من العقاب البحرى

أو يسمع خفق قوادم النسر العملاق حين يمر به

فيمزق أوراقه

لا تطيق حياته حمأة هذه الأرض

فتتوغل جذوره الهائلة فى الصخور

فى يديه المطر ، والطل ، والريح ، والضوء الملتهب مثل نبى قديم ،

يتلقى النسغ والحياة

من حب السماوات .

أيها الشجر العظيم ، الصورة الحية للطبيعة :

تملك مقاليد الجبال ، وتجسس على الأبد

من أجله ، الأرض راسخة ، وأغصانه تقبل السماء التى تسحره ،

ويملك البرق والريح

لعظمته وإرادته .

آه . أجل ! عندما تجأر العاصفة فى آفاقه

وبينما يخال الزبد تسقط صخرته
يضحك هو ، ويغنى أشد من الأمواج
قوته تزعزع السحب السوداء ببطولته الحقة .
يحسدك فؤادى ، فوق هذه الأرض الدنسة
سأحمل ذكراك مثل شيء مقدس
وأكافح دائماً ، وأنتصر ، وأسيطر على القمم
وأرويك ، وأحييك من السماء ، والنور الطاهر
آه ، أيتها الحياة ، آه أيها الحظ النبيل !!
انهضى ، أيتها النفس القوية ، واجتازى السحائب
مثل شجر الصنوبر الراسخ فى الأعالى ، وانظرى ، كيف يسقط
فى زروعك بحر الحياة الهائج
وأغنيتك الهادئة تخترق ضربات الرياح
مثل طائر العواصف .

* * *

٢ - على ساحل البحر

سلفادور إسبريو١٩١٣

فى سانتا كولومادى فيرتيرس

كان لدى على ساحل البحر

منزلك ، وكان لدى حلمى .

على ساحل البحر

سفينة عالية ؛ لأننا أحرار

مسالك من المياه

السفينة الرقيقة التى أبحر بها

كانت العيون تعرف طعم الراحة والنظام

لوطن صغير

فى حاجة إلى أن أحكى لك

أى خوف يصبه المطر فى النوافذ الزجاجية

ينهمر فوق منزلى

والليلة معتمة

والصخور السوداء

تشد سفنى إلى الغرق

أسير النشيد ، وجهدى لا جدوى منه

من يهدينى إلى الفجر ؟

على ساحل البحر ، كان لى منزلى ، وكان لدى حلمى

* * *

٣ - نجمة الحب

ماريا أجيلو
(١٨٩٧ - ١٨٢٥)

ها هى الخود تمر

فتخفق القلوب

فالحب هو الحياة

القلوب تخفق

فالحياة هى الحب

كل من ينظر إليها

يمضى وراءها

يصاحبها سبع حسان

فى غاية من الرشاقة

وحين يطلقن شعورهن

يصرن قباحًا بجوارها

ضفيرتها تقبل أقدامها

حين تمر

تخلف عبق زهر العسل

الشباب الذين يعبرون بها

يودون أن يمنحوها قلوبهم

تود كواعب القرية

أن يسحرنها

الأحجار التى تطؤها

تظل ترتجف

حين تذهب إلى الكنيسة

لا يعرف الناس كيف يصلون

الملائكة التى تنظر إليها

لا تتعب من النظر

ترى هى أخت مَنْ من الملائكة

فهم يريدون سؤالها

اقترب منها فتى فلم توله نظره

قال لها قونت : يا جميلة

وقيد خطاه

سألها راهب : ألا تريدين " الاعتراف " (قالت له)

" آه أيها الراهب ، الراهب الصالح

امض أمامى ، إننى أبحث عن دير

فقد نذرت نفسى للرهبانية " .

* * *

٤ - الليل بارد ، صحو ، ساج

أبيل ليس ميسترين
(١٨٥٤ - ١٩٣٦)

الليل بارد ، صحو ، ساج
كل شيء نائم ، الأرض والسماء
تغطان فى نوم الاحتضار
إنه نوم الشتاء .
لا يغنى الليل مثل ليالٍ أخر من خلال اللبلاب
الذى يتسلق الحائط
حين يمر به النسيم
النسيم الليلة أخرس
وكذلك اللبلاب
القمر الساهد ، القمر الوحيد .
مقيد فى كبد السماء

يتئر النظرة إلىَّ ، النظرة الساكنة

يقول لى فى بهاء :

" لقد تعذبت كثيراً ، أعرف هذا جيداً ، لكنى أعرف أيضاً أنك
وإن استطعت أن تتخلى عن العذاب إلا أنك لا تريد "

* * *

٥ - ميورقة أثناء الحرب الأهلية

بارتوميو روسيلو بورثيل
(١٩١٣ - ١٩٣٨)

ما تزال هاتيك الحقول مخضرة

ما تزال هنالك هاتيك الأيكة

وفوق اللون الأزرق ذاته

تخترم جبالى

هناك تصب الأحجار دائماً الأمطار العصية ،

الأمطار الزرقاء ، التى تهبط من فوق جبلك الأشهب

كم أنت ممتع يا ضيائى :

إننى بخيل بالضوء الباقى فى عيونى

الذى يرجفنى حين أتذكرك .

والآن هذه البساتين هنالك مثل الموسيقى تزعجنى

ترهقنى مثل الملل الرازح .

ها يذبل قلب الخريف ، بينما ترتفع الأدخنة البخيلة ، وتحترق المروج فى الروابى ، من الصيد عبر أحلام سبتمبر والسحب مصبوغة بلون الغروب

كل حياتى بلون الغروب

كل حياتى ملتصقة بك

مثلما يلتصق فى الليل

اللهب بالظلال .

* * *

٦ - البقـــرة العميـــاء

جوان ماراجال
(١٨٦٠ - ١٩١١)

تصطدم هامتها بالجذوع

تمضى تائهة نحو مورد الماء

منفردة تمضى البقرة وحيدة . إنها عمياء

لقد قذفها الراعى الملول ضربة مصمية بحجر فى إحدى عينيها وعلى العين الأخرى وضعوا عصابة : إنها عمياء ترد الماء الذى تعودت وروده مرات متعددة ، متيقنة ، ولم تعد ترده مع صواحبها ، بل وحيدة .

وصواحبها عبر الروابى ، ومنابت الكلأ

وعبر سكون المروج والضفاف

تهز الجلاجل - دون قصد - بينما ترعى العشب الندى وتسقط هى .

تصطدم هامتها بالحوض المتهدم

فتعود ذليلة ، لكنها تستأنف الكرة

وتثنى جيدها نحو الماء ، وتشرب فى هدوء

قليلاً ، ودون عطش ، ربما

ثم ترفع رأسها نحو السماء الهائلة

رأسها القرناء - فى إعادة مأساوية - ترف

على إنسان عينها الميت ، ثم تعود إلى الشمس القائظة

يتيمة البرق - فى الشعاب تترنح - ولا تنسى أن تشيل بذنبها الطويل فى امتداده . .

قصائد من نيكاراجوا

١ - مولد الشمس

بابلو أنطونيو كوادارا ، ولد ١٩١٢

لقد ابتدعت عوالم جديدة

وحلمت بليالٍ مشيدة بدعائم لا توصف

واخترعت كواكب مشعة ، ونجومًا ثواقب

فى القرب من عيون نصف مغمضة

أبدا ، ومع ذلك

سأكرر ذلك اليوم الأول عندما خرج آباؤنا

مع قبائلهم من الغابة الرطبة

ونظروا إلى الشرق

وسمعوا زمجرة النمر ، ونشيد الطيور

ورأوا رجلاً ذا وجه سنجابى

وفتًى ذا وجه متألق

نظراته المتوهجة كانت تجفف مياه البحيرات
وفتًى فارعًا ، مشتعلاً وجهه السنجابى
كان وجهه يضىء العالم .

٢ - المساء امرأة مجهولة

سألت الفتاة الرجل الغريب :

لماذا لا تمضى من هنا ؟ فالنار مشتعلة فى دارى .

أجاب العابر : إننى شاعر

أحب أن أعرف الليل فحسب .

طرحت هى على النار رماداً

وفى الظل اقتربت بصوتها من الرجل الغريب قائلة

المسنى ، وستعرف الليل .

* * *

٣ - الْــمَلَك

واقفًا بقامة الذكرى

طاهراً ، مثل الماء ينعكس عليه الضياء

عاشق الاستجداء ، يشكل ترجمة حياتى .

أعشق هذا الكائن الذى لا يجهد ، ويجرحنى فى صمت

ليلاً ونهاراً ، أشد من كلب هزيل

أدور حول فردوسى

حيث تركت حنينى

الذى مات الآن ميتة حلوة

لو كان سيف ذكراه الصقيل

ينام مثل دمى فى لياليه

لكنك ماثل هنا ، مثل حور كائن فى قامتك

واضعًا جناحك البطىء المشبه للنهر ، فوق كاهلى

فوق تلك البضعة المقصودة والحرة من اللحم

تتحسس هل ثمة صليب ، هل ثمة على الأقل ألم غامض مضاعف ثم تعود بوجهك ؟

وجهك العظيم مثل زهرة الداليا يرفدها قوة شجر البلوط الصلبة ، مثل نجمة يرفدها الغضب المتمرد ، المتوهج من وهج البرق .

* * *

٤ - النمر فى عيون الطفلة

خوسيه كورونيل أورتتشو ، ولد ١٩٠٦

النمر رابض فى العيون
أسير فى المنعطفات الأمينة الكسلى
ينهض مثلما ينهض النبات من الحمأة
ما بين أقراص الشهد ، والملذات على حافة سرير ،
الصنبور المفتوح ، الهمس ، بخار الحمام
عصير البرتقال ، الخبز المقدد
كل ما يخطه سن القلم الرصاص
حركة اليد التى تطلق حمامة
الأثداء مثل الأعشاش الخفية بين الغصون أفعى حلوة مثل أغنية
ما بين حشايا قديمة ، وما بين أصص الزهور
عمى صباحًا أيتها البنية المنسية من زمن
لا تستيقظى تمامًا فى الزيارة

بل تابعى خطوطك الاستوائية الواثقة

دائماً نائمة ، عذراء ، بذيئة

هل تعرفين السيدة التى تضع يدها فوق صدرها (الجيوكندا)

النمر فى عيون الطفلة التى لها عيون المرأة .

قصائد من الأرجنتين

ماثيدونيو فرناندث (١٨٧٤ - ١٩٥٢)

ثمة موت

لا تحملونى إلى ظلال الموت

إلى حيث تتحول حياتى إلى ظلال

حيث يحيا فقط ما قد كان .

لا أود حياة الذكرى

هبنى أيامًا أخرى مثل أيام هذه الحياة .

آه . لا تجعل منى - عاجلاً - كائنًا مفقوداً

أكون أنا الكائن المفقود . .

لا تأخذ من يومى !

أود أن أبقى فى نفسى

أجل أشاحت نظرة حب من أعين

وبقى فحسب نظرة العيش .

إنها نظرة ظلال الموت

ليس موتًا ارتشاف رحيق الخدود ،

بل الموت أن تنساك عيون ترنو .

ظهور مدني

أوليفريو خيروندو (١٨٩١ - ١٩٦٧)

أنجم من تحت الأرض

أم هوى من السماء ؟

لقد كان بين الضجيج

جريحًا

غائر الجراح

ساكنًا

فى صمت ، متسمراً تجاه الأصيل

تجاه القضاء الحتمى

العروق ملتصقة

بالبشاعة

بالمفارق المتهاوية

بالأسفلت

بعيون قديس

كله ، كله عار

يكاد يكون أزرق من شدة البياض

يتحدثون عن فارس

بيد أني أعتقد أنه كان مَلَكًا .

عـــــزلة

ريكاردو مولينـــارى (١٨٩٨)

أتحدث عن أمسى ، عن الزهور
عن الماء القوى ، الشفاف ، البارد
عن التنفس ، عن القمر المتفتح ، آه يا حياتى !!
عن الملك العذب ، المنفرد فى الأسحار
عن أمسيات كثيرة جافة ، وضئيلة
عن الخير المتتابع دون فرحة
عن الضياء ، السماوات ، عن العابرين المجهدين
عنك أيها الزمن الحاضر ، الشجى
الراحل عنى ، تاركًا إياى فى سهد :
منفردًا ، تائهًا ، دون معنى
وفوقك ، أيتها الحياة الرقيقة

شعر ناعم ، وادع ، ويقظ
يحلم الموت ، ويتحرك السكون .

* * *

أنشودة قصيرة إلى الحزن

من فوق أوراق الزمن العريضة اليابسة الباردة تصل مخضلاً عبر
الشمس الهاربة للفصول الرطبة فى السهول تجىء ملونًا مرتجفًا ،
فيشعر قلبى بسعادة وحذر الكلمة الصامتة .
وهمس الخطى فى المروج يغمر السأم
وبريق العطر المقيد الغارق القصى
تلملم الثوب - متجمعًا فى اليمين - المطوى المهترئ إلى العظام .
كما تود أعماق النفس أن تندمج بك ، وأن تمتزج
أجل مثل الهواء داخل الفم المتضايق المشتعل
تلج مع دوار المحيط ، والبريق المبتل للسماوات
التى تصل الجنوب متثاقلة ومتأخرة وساهدة
حيث تطير وتعشعش الحبارى الوردية
ويعود المساء المدعو أسى حزينًا ومشتتًا تحت الدياجى المزهرة .

* * *

١ - كتابة على قبر

خورخى لويس بورخس (١٨٩٩ - ١٩٨٦)

لا تتصد أيها المرمر الجسور

للتناقضات المدوية تجاه النسيان العاتى

مخلداً فى إسهاب

الاسم ، والرأى ، والوقائع ، والوطن

فأكثر الخرزات المعقودة تستقر فى الضباب

والمرمر لا يفشى ما تطويه صدور الناس

ما هو جوهرى فى هذه الحياة الفانية

- الأمل المرتجف ، ومعجزة الألم الذى لا يخمد ، ودهشة المتعة -

يستمر دائماً .

دون قصد يستمر بقاء النفس الحرة حين تملك

هذا البقاء فى حيوات مغايرة

حين تكون أنت نفسك امتداداً متحققاً

فى أناس لم يلحقوا بزمنك

وآخرين سيكونون (أوهم بالفعل) خلودك فى هذه الأرض

* * *

٢ - الفن الشعرى

النظر إلى النهر الذى حفره الزمن والماء
وتذكر أن الزمن هو نهر آخر
ومعرفة أننا نضيع مثل النهر
وأن الوجوه تمر مثل الماء .
الشعور بأن السهد نوم آخر
يحلم لا ينام ، وأن الموت
الذى تحشاه أجسادنا هو موت
كل مساء ، ويدعى نومًا
والرؤية فى اليوم أو فى السنة رمزاً
لأيام المرء وسنيه
وتحويل شناعات السنين إلى
موسيقى ، وهمس ، ورمز .
والرؤية فى الموت نومًا ،
وفى الغروب ذهبًا حزينًا ،

هذا هو الشعر الخالد ، الفقير .
يعود الشعر كما يعود الفجر والغروب
أحيانًا فى الأصائل ينظر إلينا وجه
من عمق مرآة
يجب أن يكون الفن مثل هذه المرآة
التى تكشف لنا وجهنا ذاته
يحكون أن عوليس [1] – سأمان من الأعاجيب –
بكى حبًا حين لمح إيتاكا [2]
خضراء ، ضارعة . الفن هو إيتاكا هذه
خضراء من الخلود لا من الأعاجيب .
كذلك هو مثل النهر الذى لا حدود له
والذى يمر لكنه يبقى . هو زجاج هرقليط [3] نفسه المتحول
إنه هو نفسه ،
وهو غيره فى الوقت ذاته ،
مثل النهر الذى لا حدود له .

(١) عوليس Olises : ملك إيتاكا ، أحد الأبطال المعروفين في حرب طروادة ،
(٢) إيتاكا ITACA . إحدى الجزر اليونانية المشهورة كانت مملكة عوليس ، تسمى اليوم TEAKI .
(٣) هرقليط : HERACLITO ٥٤٠ – ٤٨٠ قبل الميلاد فيلسوف إغريقى ولد فى Ejeso ، أهم أعماله " عن الطبيعة " ، وهو ثلاثة أقسام الكون ، والسياسة واللاهوت .

٣ - حـــدود

هناك بيت شعر لفرلين ، لم أعد أتذكره ،
هناك شارع قريب محظور أن أخطو فيه .
هناك مرآة تطلعت فيها للمرة الأخيرة
هناك باب قد أغلقته على نهاية العالم
بين كتب مكتبتى (أنظر إليها الآن)
كتاب لم أفتحه بعد
فى هذا الصيف أتم خمسين عاماً
والموت يتحيفنى دون توان .

قصائد من الشاعر المكسيكى

أوكتابيو باث

تقديـــــم :

ولد فى المكسيك ١٩١٤ ، وهو الآن أكبر شخصية مؤثرة فى حركة الشعر ، والفكر النقدى فى أمريكا اللاتينية ، أسهم فى بداية حياته فى تحرير مجلة " تايير TALLER " التى وصلت فى بلده جيل المعاصرين بالحركة السريالية ، وهى التى دافعت دائمًا أن تبقى تلك الحركة – عبر هذا القرن – بمثابة تحرير للروح تمامًا . بيد أن باث ما عتم أن انفصل عن العلائق الأدبية المنطقية ، ومن بينها العلائق الطبيعية بالشعر الغنائى الإسبانى فيما بين الحربين ، كى ينضج صوته بطريقة قوية وأصيلة .

النقطة الأشد وضوحًا لهذا الصوت استطاعت أن تكون درجة حارة وقريبة ، وفى الوقت ذاته ذات قيمة شعرية أصيلة ، واحتقبت فى الشعر قضايا الوجود القصية الغور للإنسان ، فى بعديه الشخصى والتاريخى " مرارة الحياة المعاصرة ، عدم التجانس الجوهرى للإنسان ، صعوبة التواصل ، غيبوبة الإنسان المعاصر ، محاولة الخلاص عبر شعاب من حماسة مسئولة حقًا ... إلخ " ، شاعر فرد ، وشاعرمنتم ؛ بمعنى أنه شاعر التوحد والاتصال ، مثلما هو شاعر الصحو والهذيان .

مجموعة من المصطلحات تتكرر لتحديد تلك المعركة الباطنية لفكرة الشعرى ، ولا تقتصر على تمرين دياليكتيكى خالص ، بل هى هدف طموح لتكامل تام ، يتمثل فى صنعة شديدة الحرية ، مشرقة ، تستند إلى أساس راسخ .

وثاقة المضمون ، والأسلوب فى نتاجه الأساسى " صخرة الشمس " مثلا ، ويعتبر أحد النصوص الكبرى فى كل الشعر المعاصر " تخلى عنها - مع ذلك فى السنوات العشر الأخيرة . فى تلك الفترة أنشأ يهتم أكثر بالموضوعات العميقة ، العالم الخيالى بالمفاهيم الروحية للشرق ، كذلك بخرافاته وأساطيره ، ولعل ذلك قد حدث من احتكاكه وطول إقامته فى الهند سفيراً لبلده المكسيك ، وفيما يتعلق بالشكل والتعبير فقد مثّل ما هو تقريبًا قائمة البرنامج الخاصة به ، مدافعًا بعقيدة مستميتة فى بياناته النظرية عنها ، وهو فى نظر الكثيرين رمز جلى للمعاصرة : الشعر مرادف للأزمة اللغوية ، وكذلك لأزمة التواصل ، الناقد المغلق ، العمل المفتوح ، التجزئة أو التقسيم الشكلى ، وباختصار " الرموز فى تعاقبها " أو كما يروق له أن يصنف الشعر - حسبما يرى هو - أن يكون ابن يومه حسماً ، وهذا لا يفترض على الإطلاق - من جانبنا - طرح مساهمة العناصر غير العقلية للغة فى البيت ، هو بناء قد منح غالبًا الشعر الغنائى المعاصر أصالة فائقة وثراء ، وإن كان قد نجم بعد الممارسة المتروية شىء من فقدان التواصل وطريقة من الإشارات الثقافية الغريبة ، وأمام القارئ الأوروبى المثقف - فى وسعها كما هو الحال فى باث - تميل به إلى خفوت ذلك النبض الوجودى المكثف الذى

كان يمنح شعره السابق أصالة واضحة . هذا النبض لم يضع ، لكن مع خطوة يحدث خطر الذوبان فى شبكة مشتجرة من تدريبات لغوية تائهة وهى من جانب آخر ليست جديدة ، وإن كانت أكثر خصوصية لتجريب ما هو متأخر من شاعر هو أوكتابيو باث ككل ، ولفهم ديوانه " القوس والوتر المكسيك ١٩٦٧ " .

باث كاتب مقال أصيل ، لاذع ، أسهم بوضوح فى اكتشاف الروح المكسيكية ، ديوانه " متاهة العزلة " يضم موضوعات شعرية معاصرة فى اللغة الإسبانية ، وديوانه " كمثرى الدردار الكوادربيو " موضوعات متنوعة وإنسانية ، " تيار يتردد " فى هذه العناوين الرئيسية يرى القارئ المتشوف أن يضم مؤلفاته الموجزة الحديثة ، والمعلن عنها ، مما يشير إلى اطمئنان حذر من جانب باث ، فيما يتعلق بحساسية ملكاته النقدية ، وبالمثل يوجب يقظة مستمرة وعظيمة ؛ إذ أن أجيال الشباب المتعاقبة فى السنوات الأخيرة لا توليه ذلك . دواوينه : القمر البرى ١٩٣٣ م ، جذر الإنسان ١٩٣٧ ، تحت ظلك المضىء ١٩٣٧ ، بين الصخر والزهر ١٩٤١ ، على ساحل العالم ١٩٤٢ ، حرية تحت الكلمة ١٩٤٩ ، العقاب أو الشمس ١٩٥١ ، بذور من أجل نشيد ١٩٥٤ ، صخرة الشمس ١٩٥٧ ، المحطة الإجبارية ١٩٥٨ ، حرية تحت الكلمة الأعمال الشعرية ١٩٣٥ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٠ ، سمندره ١٩٥٨ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، عاصفة كاملة ١٩٦٥ ، برندابار ١٩٦٦ ، أبيض ١٩٦٧ ، قصائد ١٩٦٨ ، أسطوانات مرئية بالاشتراك مع بيثينتى روخاس ١٩٦٨ ، منحدر شرقى ١٩٦٩ .

شاعــــر

موسيقى وخبز ، لبن وخمر ، حب وحلم : بلا مقابل
عناق قاتل من الأعداء المتحابين : كل جرح هو نبع .
الأصدقاء يشحذون أسلحتهم جيدًا استعدادًا للحوار
النهائى حوار الموت على مدى الحياة : يعبر العشاق
الليل متلاحمين ، متلاصقى الوجوه والجسوم الإنسان
قوت الإنسان ، الشعر يشعل النار فى القصائد ،
تنتهى الكلمات ، تنتهى الصور ، تتلاشى المسافة
بين الاسم والمسمى ، فالتسمية خلق ، والإفضاء
ميــلاد

....

بدءاً ، خذ الفأس ، وكن دقيقًا
ادفع ثمنك ، واقبض أرضًا ، وفى لحظات الفراغ
ارع حتى الانفجار : فثمة أكداس هائلة من الجرائد
أو انحن كل مساء على مائدة المقهى بلسان متورم
من السياسة
صَهْ ، أو أومِىءْ : فالكل سواء ، ففى مكان ما يعدّون
إدانتك ، ليس ثمة مخرج لا يفضى إلى العار أو
إلى المشنقة . لديك أحلام واضحة أكثر من اللازم ،
بيد أنه تنقصك فلسفة قوية .

فـى الـطـريـق إلـى الـقـصـيـدة

" نـقـطـــة انـطـــلاق "

كلمات ، استغلال ربع ساعة تنتزع الشجر المتكلس للغة ، ما بين الأيام الطيبة ، والليالى الطيبة ، بوابات مداخل ومخارج ، مدخل إلى طريق يؤدى إلى غير مكان ، وإلى غير اتجاه .

تدور دورات ودورات فى أحشاء حيوانية .

فى أحشاء منبعية ، فى أحشاء زمنية : والعثور

على المخرج : فى القصيدة

إصرار هذا الوجه حيث تتحطم نظراتى ، جبهة مسلحة

لاتقهر أمام منظر من الخرائب ، إثر الهجوم على السر

حنين بركان

وجه رفيق حجر كرتونى للرئيس ، للسائق ، صنم العصر

أنا وأنت وهو ، نساجون خيوط العنكبوت ،

أشباح مسلحة بالأظافر ، آلهة بلا وجوه ، مجردة ،

هو ونحن ،نحن وهو : لا أحد ، ولا شيء !
فالرب يتمثل فى كل هذه الوجوه .
اللحظة تتجمد ، البياض يسود
ولا يجيب ، يتلاشى ، لا تدفعه حتى التيارات
الدوارة ،
ها هو يعود
نزع أقنعة الفانتازية ، رشق رمح فى بؤرة الشعور :
تثوير البركان
قطع الحبل السرى ، قتل الأم جيداً : جريمة يرتكبها
الشاعر المعاصر من أجل الجميع ، ليلتمس الشاعر
الجديد طريقة فى اكتشاف المرأة
الكلام من أجل الكلام ، نزع أصوات القنوط ،
يكتب ما يمليه طنين الذبابة ، والظلام
الزمن يفتتح بابيه : إنها لحظة الاندفاع القاتل .

مدريد ١٩٣٧ (*)

في ميدان الأنخل ، النسوة يخطن ، ويغنين مع أولادهن

فجأة ، صاح النذير ، ارتفع عويل

بيوت تجثو في التراب

أبراج متصدعة ، واجهات تنحط

وبركان الموتورات : انظر :

العاشقان يتعريان ، ويتحابان ،

دفاعاً عن حظنا الخالد ،

وعن نصيبنا من الزمن ، والفردوس

تلمسا لجذورنا ، واسترادادنا

استرداد ميراثنا الذى سلبه

لصوص الحياة منذ قرون

(*) عام الحرب الأهلية الإسبانية ١٩٣٦ - ١٩٣٩ .

العاشقان يتعريان ، يقبل أحدهما الآخر

لأن العاريين المتلاحمين يقفزان فوق الزمن

ولا يُكَلْمان ، لا شيء يمسهما ، يعودان إلى المبتدأ

فليس ثمة أنت وأنا ، ولا الغد ، ولا أمس .

ولا أسماء

حقيقة الاثنين جسد وروح فحسب

آه ، إنه كائن كامل

. . . .

لم يحدث شيء ، حاشا طرفة عين من الشمس

حركة لا تكاد تذكر

ليس ثمة خلاص ، لا يكر الزمن للوراء

فالموتى رقدوا فى موتتهم ، لا يلامسهم أحد

ثابتين فى مكانهم

منذ وحدتهم ، منذ موتتهم

بلا إرادة ، ينظرون إلينا ، دون أن يرونا

لقد غدت موتتهم تمثال حياتهم

كينونة مستمرة ، حيث لا كينونة مستمرة

كل لحظة ليست شيئًا بجانب الأبد

ملك وهمى يحكم خفقانكم

حركتك النهائية ، وقناعك الجاسى

يحفر فوق وجهك المتبدل :

نحن النصب التذكارى لحياة ما

غريبة عنا ، ليست معيشة ، لا تكاد تخصنا

الحياة ، متى كانت حياتنا حقيقية ؟

متى كنا محققين لآدميتنا ؟ بنظرة فاحصة لسنا بهم ، أبداً لسنا بهم

لسنا سوى دوار ، وفراغ

صعارة فى المرآة ، فظاعة ، قىء .

لم تكن أبدا الحياة حياتنا ، بل كانت حياة آخرين

الحياة ليست لأحد ، فكلنا الحياة - خبز الشمس ،

من أجل الآخرين ، كل الآخرين هم نحن -

إننى أكون الآخر حين أكون أنا

كل فعالى تكون ملكًا لى أكثر حين تكون للآخرين أيضًا ،

لكى تستطيع أن تكون كائنًا لابد أن تكون كائنًا آخر

الخروج منى ، بحثًا عنى بين الآخرين

الآخرون لا وجود لهم إذا لم يكن لى وجود

الآخرون الذين يمنحوننى وجوداً كاملاً ،
لن يكون لى وجود ، ولا ثمة أنا ، بل دائماً نحن
الحياة تكون حياة أخرى حين تكون دائماً بعيدة
خارجة عنك ، وعنى ، وفى الأفق دائما
حياة تسلبنا ، وتذهلنا
تخلق لنا وجهاً ، وتمحوه ،
جوع الكينونة ، أيها الموت ، يا خبز الجميع
- اليوسا ، بيرسيفونا ، ماريا -
أظهر وجهك فى النهاية ، كى يرى
وجهى الحقيقى ، وجهى الآخر
وجهى . وجه الجميع ، ودائماً
وجه الشجرة ، ووجه الخباز
والسائق ، وجه الغيمة والبحار
وجه الشمس ، والجدول ، وجه بدور وبابلو
وجه الواحد الجميع
هنا أصحو وأولد .

هنــا

خطواتى فى هذا الشارع

تـــرن

فى شارع آخر

أسمع خطواتى

تمضى فى هذا الشارع

حيث

الضباب هو الشىء الواقعى وحده .

يقيــن

إذا كان النور الأبيض ، المنبعث من ذلك المصباح

واقعًا ،

واليد التى تكتب حقيقة واقعة

فهل العيون التى ترى ما يُكتب حقيقة واقعة ؟

من كلمة إلى أخرى

ما أقوله يتلاشى

أعرف أننى أحيا
ما بين قوسين .

شاهد على قبر عجوز

وسدوها ضريح العائلة
وفى الأعماق ، ارتجف التراب
الذى كان تراب زوجها :
فرحة
الأحياء
هى فجيعة الأموات .

شعب

الحجارة زمن
الريح
قرون من الريح
الأشجار زمن
والناس حجارة

الريح

تعود فوق ذاتها ، وتدفن

فى يوم حجرى

ليس ثمة ماء ، بيد أن العيون تبرق .

الآخــــــر

اختُلق وجه

وخلفه ، عاش ، ومات ، وبعث

مرات متعددة

اليوم ملىء بتجاعيد هذا الوجه

تجاعيده لا تجد وجهاً .

صخرة الشمس

أتجول فى جسدك كما أتجول فى العالم

بطنك ميدان مشمس

ثدياك كنيستان ، حيث يرعى الدم أسراره

المتناصية

نظراتى تغطيك كأنها العشب
إنك مدينة يحاصر البحر سورها ؛ حيث يقسمه
النور شطرين من لون الدراقن
ملح ، صخور ، طيور
يحكمها قانون الزوال الذاهل .

....

متوشحة بلون رغباتى
مثل أفكارى تمضين عارية
أتسرب فى عينيك مثلما أتسرب فى الماء
النمرة تشرب الأحلام من هذه العيون
الفراش يحترق من ذلك اللهب
أتجول فى جبهتك مثلما أتجول فى القمر
وفى أفكارك كما فى السحابة
أرانى فى بطنك ، كما أرانى فى أحلامى
خصرك مثل الذرة يتموج ، ويغنى
خصرك البللورى ، خصرك المائى
شفتاك ، شعرك ، نظراتك

انهمار الغيث سحابة الليل والنهار
تفتحين صدرى بأناملك المائية
تغلقين عينى بثغرك المائى
تمطرين فوق عظامى ، وفى صدرى تغرق
جذور ماء يأخذ قوامه
أمضى عبر خصرك كما أمضى عبر نهر
أتجول فى جسدك ، كما أتجول فى غابة
كما أتجول فى شعب جبلى
يفضى إلى زهرة مفاجئة
أمضى عبر أفكارك المسنونة
وعند نهاية جبهتك البيضاء
يتمزق ظلى المخدوع
ألملم مزقى شيئًا فشيئًا
أواصل بلا جسد ،
أبحث لمسًا .

كلمات عن الشعر

خوان رامون خمينث

– التشتت فى العناصر الداخلية أحد الخصائص الأساسية فى الشعر الغنائى .

– لكى يكون الشعر عالميًا ، مطلقًا ، خالدًا ، ينبغى أن نرفع جبهته ، لا أن نقيد قدميه ، فإذا كان الشعر ذا ماهية مطلقة ، راميًا إلى ما هو أبدى فلماذا نصفده بالقيود ؟ دعوا الأرض ، وذروا المحلية الضيقة ، وانظروا فى السماوات ؛ حيث إنها واحدة فى كل الجهات ، الذى يرحل ويقرأ ، ويلاحظ هو واحد على الدوام ، والأفكار والألوان ، والأشكال التى يحملها أحدنا فى أعماقه ، والتى هى نتاج انطباعات مختلفة وكثيرة – والتى هى بدورها متعددة تعدد الأشكال ذاتها – تغدو فى النهاية ذخيرة تختلف حسب كل فرد ، فما يتمحض عنه هذا – لو كان بسيطًا وصاحبه شاعرًا – يكون جديدًا وجميلاً .

– فيما يتعلق بالشكل ، فإن ديوانا نظم كله بالرومانثى ذى الثمانية المقاطع ، أو بالنمط الإسكندرى فإنه يكون رتيبًا مضجرًا ، ألا يجوز أن يتنفس كل شعر هواءه ، ونغمه ، وإيقاعه ، ولونه الخاص ؟ والكتب

النثرية ماذا بشأنها ؟ إنها ستكون رتيبة ، أكثر رتوبًا ، لأن النثر يوازى الشعر الحر ، والرومانتى يغير الوزن ، والإسكندرى فى ضربه "الكوارتى" يغير القافية - لا ينتهى الشكل بل الفكرة ، ولذا لا نهاية للشكل على الإطلاق .

- الشكل غير منظور .

- ما لا يقال يقتضى تعبيراً غير مسهب ، وتلك حقيقة الشعر المزدوجة .

- يبدو لى أن " السونيتان الشكلية " هى دوائر الأدب الحجرية .

- لا أدعى - ولا أريد - أن هذا الفن الشعرى ينفع أحداً إلا الشاعر ، وما ليس بشاعر فلا حاجة له به ، بل إن الشاعر أقل حاجة إليه مما ليس بشاعر ، فضلاً عن أن هذا ليس حيثية بل إنه نتيجة ، كل ما أريد قوله : إن ذلك هو تحليلى أنا ليس إلا .

- لا تطرحوا شعرا لم يكمل بعد ، إذا كان قد بدأ جيداً فسوف يكمل وحده يومًا ما .

- من شأن الأحزان الخيالية أن تمنح الشعر عاطفة قوية أكثر مما تمنحه أحزان الواقع .

- البحور القصار - الفن الأصغر - بطبيعتها البسيطة هى نظام دقيق ، هذا إذا لم ندع نحن البساطة .

- علامة الشعر الصادق الذائعة أنها تود أن تقول : حذار من التقليد !! .

- الشعر العظيم ليس له إلا زمنان فحسب : لحظته الحاضرة ، وبعد قليل خلوده الباقى .

- ليس الشعر هذا ولا ذاك ، هو على كل الأحوال موجود فى كل المناحى وكل شاعر فى ذرعه أن يعبر شعراً - يختلف - مطلقًا - عن الآخرين ، لا ينبغى تحديد الشعر إلا بمظاهره .

- ما يشترط - عادة - فى الشعر أن يكون أدبًا ، لكن ما نشترطه نحن أن يكون الشعر روحًا .

- من الممكن أن يكون الشعر معقداً فى مضمونه ، وليس فى شكله .

- الشعر جوهرى ، وما هو جوهرى لا يكون وزنًا ، أو مبالغة ، أو صناعة .

- فى " السونيتا " يجب أن يكون الشكل والمضمون منصهرين تمامًا شأن أى كائن فى الطبيعة .

- بقوة . وبقوة أشد .. !! لكن الشعر ليس حربا ، إنه سلام ينافى الحرب .

- القصيدة ليست " مرمرية " مثلاً ؛ لأنها تقلد من خلال الكلمة والفكرة المرمر " البرناسية " ، لكنها هكذا " وإن كان غير دقيق مقارنتها بشىء آخر " لأنه فيما يتعلق بالشعر تحتوى القصيدة بذاتها على قيمتها العليا ، مثل الزهرة ، والغمامة ، والشجرة ، مثل المرمر نفسه ، كل هذه الأشياء تحتوى على خصائصها ذاتها ، إذًا لا توجد شجرة ، ولا غمامة ، ولا زهرة ضعافًا بالضرورة ، أو متدنية ، كما أنه بالضرورة كذلك لا يوجد مرمر أرقى .

– من الفهاهة أن نعتقد أن كتابتنا نحن من أجل الآخرين ، وكتابة الشاعر ذاته – بوجه خاص – من الممكن أن تكون لشخص آخر أكثر مما هي له هو ، إن الآخرين سيقفون من خلالنا فحسب على تلك الأشياء التى نتفق عليها ، أى الأشياء التى لا تعنينا وحدنا فقط ، أى ما يجمعنا نحن وهم ، أى أنه لا شىء حقيقى ، إن القراءة تتعلق – والشعر بوصفه إبداعًا – بما ليس يقال .

– يصلح الشعراء البيانيون للقراءة فى المنازل ، لكن فى خارجه يصمد فقط الشعراء التجريديون ؛ لأنه حين يكون أحدنا فى المنزل تكون الطبيعة فى الخارج ، لكن حين نكون بين الطبيعة يوجد فى الخارج ما هو أبدى .

أجل – دائمًا ، شعر مباشر محكم ، طبيعيًا كان أو فوق الطبيعى ، هو فى الواقع أعلى من الطبيعة والطبيعية .

– لا يمكن للشعر – مطلقًا – ولو أراد – أن يساير " الموضة " ؛ لأن الشعر هو الحقيقة ، و" الموضة " هى الكذب فى ذرعنا أن نعرف الشعر – من هذا الجانب – بأنه التعبير الجميل الذى يتضمن – عبر الكلمات – الواقع لما هو حقيقى .

– " السوناتا " الحقيقية هى التى تنسيك من جمالها أنها جميلة .

– الحضور الشعرى " لو كان الشعر علمًا لكان بهذا أرقى من أى علم آخر " لا ينال بالحظ ، وفيما يتعلق بعدم جدواه الفنية فإنه حسن فقط لمن يصادفه ، وإذا استخدمه الآخرون فإنه ينقلب إلى سم .

- عاطفة ، فكر ، وزن ، الكلمة فى موضوعها تصيب المفصل ، الكلمة فى الشعر ليست مفردة على الإطلاق ، بل مزيتها أن تأخذ بحجز أختها ، ومن ثم يكون إخفاق الشكليين " البرناسيين ، ومن شاكلهم " - تسمع إلى غناء الصرصور : يبدو فى البداية ساذجًا ، مترنحًا ، بعد ذلك واضحًا ، سلسًا ، وفى منتصف الليل يكون مكبوحًا ، هادئًا ، حادًا ، يخال أنه ينسى ما هو ، مع من يغنى ، أين هو، ، إنه يماثل نجمة ، يماثل نجمة تسبح فى الماء .

- هذا أصعب من ذاك ، هى صعوبة تعذب المبدع والقارئ إلى درجة العذاب العذب ، كأنها المباضعة المثالية والشعورية .

- ثمة شعر صعب ، فى الوسع أن يفضى بفحواه بإعمال الفكر ، مع محاولة التسلسل الدقيق بوعينا فى وعى الشاعر الذى هو فى ذلك الحين هو شعره .

وثمة نوع آخر من الشعر ، فقط نحل مغالقه في لحظات خاصة ، كأنه فراش إلهى يطارد ، فيصد عنا ، إنه ضرب من الشعر يتعلق بموقف خاص بمشاعرنا . هذا هو الشعر الذى أعجب به .

- الشعر : كل ما هو جميل ، كل ما لا يستطاع شرحه ، وليس بحاجة إلى شرح .

- فى الشعر المقفى ، قافيته هى ثوبه ، والموزون نصف عار ، أما الشعر الحر فهو عار .

– حذار ! أيها الأصدقاء ، فإننا نخلط كل يوم بين الفصاحة والسلامة – إنه صراع دائر بين الشعر الذى يريد أن يكتب وحده ، وبين الشاعر الذى يرغب أن يساعد الشعر .

– لا وجود للمثالية ، ولا الواقعية ، ولا الطبيعية ، ولا الروحية ، بل أنه يوجد فقط مستويات متعددة من الواقعية والطبيعية ، وبينهما يوجد ذلك الفارق الذى اخترع دون وعى هذه المصطلحات لأجل فهم الشعر .

– يا له من صراع بين العفوية والسلامة !! " سلامة العفوية ، وعفوية السلامة " .

– نحن لا نرسم نزعات غير مجدية على هامش الواقع .

– الواقعية خطيرة .

– ليس فى ذرع أحد أن يهون من شأن السونيتا المحكمة ، فإنها قد خرجت محكمة .

– إنها عبقرية الإحكام .

– الدقة المحكمة ، والنفحة الشخصية هما ما يمنح الشعر قيمته .

– ما هو قومى يختص بالأقاصيص ، وما هو عالمى مجرد ، ومن هنا تكون فائدته .

– الشكل الشعرى الشعبى هو من اختراع الجميع ، أو نحن الذين اخترعناه ، وليس من اختراع البعض .

- أن توجد صفحات مليئة بالتكرار شيء سئ ، لكن ليس سيئًا أن يوجد تكرار في صفحة واحدة .

- من يتحدثون - بوجه عام - عن الأسلوب يقصدون الشكل ، بيد أن الأسلوب ليس الشكل ، هو أسلوب فقط .

- في الشعر المقفى ، يصنع الشعر بالشاعر ما يريده ، وفي الموزون ثمة صراع بين الشعر والشاعر ، أما في الشعر الحر فإن الشاعر يفعل ما يريده هو .

- ليس للشعر وزن على الإطلاق ، فإن الوزن من صنع الشاعر .

- الشاعر الصادق لا يخلق موضوعًا ، لكن الذي يصنع الموضوع هو الأديب الذي يقلد الشاعر الصادق .

- في النثر كما في الشعر توجد ضروب مختلفة وغير منتهية .

- الشعر يشبه النار ، والماء ، والأرض ، والهواء ، إنه مثل العالم .

ليس مذكرًا ولا مؤنثًا ، وإن أردت فإنه مذكر مؤنث في مسحة واحدة .

- تلك الاختلافات في الجنس إنما هي من مثالب النقاد الصغار ، وليست من الشعر في شيء .

- لا ينبغي أن يكون الشعر على هذا النمط أو ذاك ؛ لأنه حين يكتب يتخذ نمطه القائم بذاته .

- ضرب من الشعر يعتبر بسيطًا حين يحيا من جديد على شفاه القارئ ، ويعطى انطباعًا كاملاً محكمًا بأنه حى فى لحظة إبداعه .

- رد على سؤال : ينبغى فى الشعر أن نكبح جيداً نشاط الذكاء ؛ لأنه يستطيع - ببساطة - أن يبدى آثار العرق فى الشعر ، وهذا شئ يخالف كثيراً ما كانت تريده السليقة : التى هى الحاكم المطاع .

- لا يهم فى الشعر كثيراً أن تكشف السر ، فتجعله واضحًا ، عاريا ، مبسوطا .

- أجل ، كما يعتقد البعض ، يوجد فى الشعر جنس مذكر ، لكنه ليس - ضربة لازب - الشعر الذى يتغنى بالحرب ، وبالخمر أو اللذة ، أليس صحيحًا يا دانتى ؟ !!

قصائد

من بيرو

ماركو مارتوس شاعر من بيرو ، خنق الخمسين ، يعمل أستاذًا لأدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية فى كلية الآداب والفلسفة ، بجامعة سان ماركوس فى عاصمة البيرو " ليما " .

يجمع ماركو بين الشعر والدراسة الأكاديمية ، وهو جمع عسير ، غير معهود بتواتر فى القرائح الإنسانية ؛ لأن الشعر حاكم مستبد ، ومشغلة عن غيره ، لكن صاحبنا استطاع التوفيق بين ملكتيه النقدية والشعرية ، فلم يصب شعره بما يصاب به شعر العلماء ، فيخرج لا مائية فيه ، عسر الرونق والبهاء .

والعجب أن الجمع بين الملكتين - ونبه عليه قديمًا سهل بن هارون - رأيته فى ليما ، مشاركًا فى مهرجان شعرها العالمى ، فى خريف العام قبل الماضى .

وللأستاذ ماركو إسهامات نقدية مهمة ، وبخاصة دراسته عن جيل الستينيات من شعراء بيرو ، وقد أخرج ، طائفة من الدواوين ، من

أبرزها هذا الديوان « شعر بيرنيثى المستعار » أو « باروكة بيرنيثى » ، إن شئنا الكلمة الأعجمية ، وقد ترجم شعره إلى الفرنسية، وهو فى صدارة شعراء جيله الآن .

يبرز فى هذا الديوان الاهتمام بالأندلس العربية ، أو بما هو شرقى عموماً ، بجانب الشعر الوصفى والتأملات ، وكان مفاجأة بالنسبة إلى أن أطالع قصائده عن الأندلس ، لبعد الشقة ، لكن يبدو - إن لم نسرف فى التخيل - أن الشاعر ربما يتحدر من الأصلاب الموريسكية التى هاجرت إلى أمريكا اللاتينية بعد زوال الحكم العربى بالأندلس ، لكنه تخيل تعوزه الأسانيد التاريخية ، وإن لم تعوزه - فى رأيى - معارف الوجه والأعضاء .

وقد آلف أن أقرأ عن الأندلس العربية لشعراء من إسبانيا (الأم) ، مثل مانويل ماتشادو الذى يفخر بأنه : « من جنس عربى قديم ، جنس صديق قديم للشمس ، أولئك الذين غنموا كل شىء ، وخسروا كل شىء » ، كما يقول فى قصيدته « الزنبق » ، ومثل فرانسسكو بياسبيسا ، وأطلقت عليه شاعر الحمراء ، لاشتمال شعره على دواوين كاملة عن غرناطة والحمراء ، كما صنع نظير له غرناطى قديم هو ابن زمرك ، ومثل خوسيه أورثكو ، وأنطونيو جالا شعراً ومسرحاً ، وغيرهم كثير .

لكن أن يفرد شاعر من بيرو قسطاً كبيراً من قصائده للأندلس العربية ، فهو أمر لافت للنظر ، ولعل الشاعر كان يتنفس من رئة الأندلس همومه القومية الإنسانية .

ومعلوم بالضرورة أنه لا ينظم حوادث تاريخية ، وإلا كنا فى غنية بالتاريخ عن شعره ، لكنه التقط حوادث التاريـخ ليقيـم معهـا حـواراً أو جدلاً حاضراً دون أن يقع فيما يقع فيه نظراؤه من أوروبا المفتونون بجو ألف ليلة وليلة ، وحين نـظـم على لسـان مختـرع الموشحات مقدم بن معافى القبرى الضرير نسبة إلى Cabra من أحواز قرطبة ، ركب طريقة الموشحات فى الأغصان والأقفال ، وكانت تبرز القافية فيها بروزاً معجبًا بالأصل الإسبانى بالطبع ، ولم يقع الشاعر فى مباءة الرموز المستغلقة ، بل كانت لغته وصوره سهلة وعميقة فى الوقت ذاته .

ولعل ترجمة هذه الطائفة من قصائده تكون بمنزلة التحية رداً على تحيته التى حيا بها أسلافنا وتاريخنا العزيز فى الفردوس المفقود .

١ - وجهان من ولادة

(يفضى ابن زيدون بحبه لولادة)

فيك وجه يتولد منه نور جميل ،

ينتشر على الدنيا ، محزون المشيئة ،

ثم يسكن ، متأملاً أياماً وليالى عارية من السكون ،

يتغلغل فى فؤادى ، يطهره من الدنس ،

أبقى مسلوب الإرادة أمام عينيك .

وفيك وجه آخر من ظل صاف ،
لا يدرى أحد من أين ، لكنه يومض ملتمعًا ،
نور وظل يمتزجان تلقائيًا ،
دفقة ظل ، ودفقة نور ، تفنينى ،
حب غريب شديد الشفافية ، لا يبين
عندما ترمقيننى .
فيك وجوه ، وجهان على الأقل
أفهمك فمًا ضئيلاً عابرًا سيكتمل حين تنقضى الدنيا

٢ - رسالة إلى ابن زيدون

(من الأميرة ولادة)
الحب الذى تعترف به محمود ، يناجز القدر ،
ويستأهل اسمًا مقدسًا ،
يلون الممكن والمستحيل حبًا كهذا الحب ،
يقترنان فى فن واحد ، وحين ينظم شعرًا
يشكل قوس قزح فى السماء اللامتناهية الصافية ،
انظر يا ابن زيدون :

السماء بسحبها المسفّة ، هذا الغيث الهامر
فوق الغوطة ، فوق الجبال القصية .
انظر هذه الزرقة الصافية الآن ،
والألوان السبعة المتواشجة
إنها تشبه قصائدك يا ابن زيدون
إنها الغبطة لفؤادى الوحيد .

٣ - سجن الحب

(يكتب ابن زيدون إلى الأميرة ولادة)
لقد لمحتك يا ولادة فى السوق ، وفى البرج
أحاول أن أطرى سحرك وعذوبتك .
لقد لمحتك تصنعين أموراً بسيطة ،
لسعادة ناسك ، ومتعة دارك :
أخلاط معجونة ، لكنها لذيذة ،
رقى طيبة ، تجلب السعادة ، لا الألم .
وقد تركتنى مسحوراً بمشطك وبسمتك ،
بحبك الآسر الذى أوهن قواى ،

مأخوذًا فى السوق والبرج ،
أحاول أن أعبر عن سحرك وفتنتك ،
أو أنظم شعرًا ، ربما يأسو جرح الحب الذى جرَّعتنيه .

٤ - فتاة غرناطة

تحلم بساحة الأحواض فى الحمراء ،
بباحة البحيرة ، بقاعة الأسود
حيث نوافير المياه البللورية ،
قرة عين أبى عبد الله .
مثل عمود رقيق من المرمر الحى
مثل ماء دافئ عبر أنابيب وقنوات سرية ،
مثل سيدة فى بلاط أبى عبد الله
حيث شهوة المتعة الكسلى ، متعة
الدفء فى غوطة غرناطة .
مثل حلم يقيد الزمن ، مثل كلمة ينطقها أبو عبد الله
" أبو عبد الله منفي إلى المغرب ، ليس يدرى ،
سيموت فى السجن ، ليس يدرى
سيكون آخر ملك مسلم لغرناطة .
شيء من هذا يدريه " .

٥ - موشحة

(لمقدم بن معافى القبرى الضرير)

تستحم الفتاة ، تستحم ، تستحم .

بياض ناصع ، ولون قرمزى ،

يتضوع العطر الرقيق من الحب

تستحم ، تستحم

من الماء الفوار

يسمع فى الخارج جيداً ، الصدى والمجاذبة

تستحم ، تستحم

ماذا أصنع هنا فى الخارج ؟

أريد لمس خاصرتها فحسب

تستحم ، تستحم

أسمع خرير الماء الذى لا أراه

حسبى أن أتشهى

تستحم ، تستحم .

تتوهج مع الخرير

رغبتا حب من رجل وامرأة

يستحمان ، يستحمان .

٦ - مدينة الزهراء

نور أندلسي ، فوق مدينة الزهراء
شجر البرتقال والزيتون
برك وحمامات ، قاعات مذهبة
أوانس ، أوانس قبل كل شيء
عطور نساء
طنافس ، وحرير ، في قصر عبد الرحمن الثالث
ملذات عبد الرحمن الثالث
في النهايات العربية
من زمن سحيق في الأندلس
بعيداً في جبال قرطبة
بعيداً عن المؤذن الذي يدعو الله الرحمن الرحيم
تقدست ذاته .
إلى إله النصارى ، فيليبي الثاني
في سان لورنثو بالإسكوريال
ماذا صنع ملك إسبانيا
بحاسته الشهوانية ؟

٧ - ساعة عبد الرحمن الثالث الأخيرة

(قرطبة سنة ٩٦١)

تموت الشمس فوق مسجد قرطبة

يولد ليل فى فؤادى ، لا شىء سواه

غداً يؤوب النجم إلى مداره

ليس هناك قلب فى الظلام السرمدى

أسطرلابات ، ساعات رملية

تجاعيد وجهى ، تقاويم الفيل

ذواكر الخاشعين ، جنود تشهر سيفى ،

الكل يعرف ، ويحكى كيف تسربت

قطرات خمسين عاماً من الإمارة والخلافة

ذخائر ، أمجاد ، لذائذ ،

كل هذا ملكته ، وكله بددته .

الأعداء والأعيان يقدروننى ، يخشوننى ،

يحسدوننى ، يقبلون - طبقاً لآيين البلاط -

الأرض بين يدى ، يصعدون خاشعين إلى أريكتى .

كل ما يتمناه الرجل وهبته العناية الإلهية لى .

يهبط المساء ، تسقسق الطيور .

عبر ذلك العمر الطويل البائن الجذل ، حاربت

فى طليطلة ، وفى ماردة ، وفى سرقسطة ،

وحققت النصر فى كل غزواتى ، وأخمدت

كل الفتن المبيرة ضد الخلافة ،

وكل حسان الأندلس ابتسمن فى فراشى

كل صباح .

يهبط المساء

تكف الطيور عن السقسقة ،

قبل أن أقضى أود أن أعد أيام السعادة

تتفحص ذاكرتى الماضى : إنها أربعة عشر يومًا

يتدبر المؤمنون والشهداء عظمة الكون والحياة معى

يهبط المساء .

كان اسمى عبد الرحمن الثالث

هذه كلمتى الأخيرة .

٨ - فأل سيئ يحط على زرياب

قرطبة ، قرطبة الخلافة ،

قاعة المرايا فى قرطبة الخلافة ،

بجانب البابة المؤدية إلى جيان ،

فى قاعة المرايا فى قرطبة الخلافة ،

بجانب البابة المؤدية إلى جيان .

زرياب ، الموسيقىّ المغنى يلعب الشطرنج

مع صديق أندلسى ، يتأمل لعبته مليًا

يمسك طابية بأصابع يده اليمنى ،

يحلم ببغداد ، بمحجتها الدائرية ، بمسجدها ،

بسوقها الحافلة ، الممتدة وراء الأسوار ،

بنخلة ، بنخلة وحيدة ، تنشر ظلالها

قصيدة حب .

الطابية ذاهبة فى الهواء ، النصر وشيك ،

بغتة يتحطم الزجاج فى قاعة المرايا

فى قرطبة الخلافة ،

بجانب البابة المؤدية إلى جيان ،

لم يمت الشاه ، فأل سئ يحط فوق زرياب ،
ها هى ذى يده تفتر ، يخسر اللعبة ،
خسر زرياب الجولة ؟ .
هل سيلحق النحس به فى قرطبة الخلافة ؟
أيموت فى هاته الأرض دون أن يحقق المجد والشهرة
أم ستسقط قرطبة ؟
تسقط فى يد النصارى الذين سيدمرون
قاعة المرايا ، وبابتها المؤدية إلى جيان .
ماذا سوف يحدث ؟
كيف ستتحرك القطع اللانهائية
فى جولة الشطرنج ؟

المترجم فى سطور

عبد اللطيف عبد الحليم (أبو همّام)

ولد فى المنوفية ١٩٤٥ ، وتخرج فى دار العلوم ، وعمل معيداً بها ، وسافر إلى إسبانيا فى بعثة حاز فيها درجة الدكتوراه فى الأدب المقارن من جامعة مدريد ١٩٨٣ . يعمل حاليًا رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة .

ترجم عشرة كتب من الإسبانية فى المسرح والقصة والشعر والدراسة النقدية والتاريخية ، منها :

- مسرحية « خاتمان من أجل سيدة » وحازت جائزة الدولة التشجيعية فى الترجمة الإبداعية ، ونوط الامتياز من الطبقة الأولى .
- تأثيرات عربية فى حكايات إسبانية (دراسات فى الأدب المقارن) .
- فصول من الأندلس فى الأدب والنقد والتاريخ .

شاعر ، أصدر ستة دواوين ، منها :

- الخوف من المطر .
- أغانى العاشق الأندلسى (وحاز جائزة مؤسسة يمانى الثقافية) .
- زهرة النار (وحاز جائزة البابطين) .

ومن أهم دراساته :

- المازنى شاعراً .
- شعراء ما بعد الديوان (٤ أجزاء) .
- فى الحديث النبوى - رؤية أدبية .
- حديث الشعر (دراسة فى الشعر المعاصر)

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــل



إن لحظات الوهج والإبداع هى اللحظات الحية بالنسبة للشاعر، وما عداها فضول، يدخل فى نطاق العيش - لا الحياة - وما كنت فى هذه الترجمة إلا حيا يتخلل بواطن هؤلاء الشعراء، ويجوس فى أعماقهم. وأشهد أن ثمة بعض الإغماضات التى كانت تصادفنى، وما كانت تسعف المعاجم على كثرتها، فما كان منى إلا أن أحياها، و "أضطر إلى مضايقها" كما يقول القدماء، فأعرف منحى الشاعر، ويهضب الكلام، وينثال أتيه. ولو لم أترجم هذه الصفحات لكنت قائلها أو قائلا بعضها على كل حال فى عروض الخليل.

